

نصوص

شوق الأجنحة إلى الرحيل

أحمد ابراهيم الفقيه

شوق الأجنحة إلى الرحيل

أحمد إبراهيم الفقيه

شوق الأجنحة إلى الرحيل

سياحات طائر "بئر الغنم"

-١-

فى التراث الشعبى الليبى طائر حكـيم تسـميه الخرافـة "الطائر اللى يغنى وجناحه يرد عليه" فهو طائر وجـد فـى جناحه سميراً وأنيساً عندما يقبع وحيداً فى عشه أيام البـرد وليالى الشتاء الطويلة، محاوراً فى لحظات التأمل والتفكيـر العميق، ومغنياً يردد معه الغناء فى لحظات الطرب والنشوة وجلسات اللهو والشراب٠

كان هذا الطائر قد ابتهج بالزيادة الأخيرة فى مخصصات المسافرين إلى الخارج، فاستخرج "جواز سفر" وقرر مغادرة "بئر الغنم" فى زيادة سريعة إلى لندن لإجراء كشف عام على صحته، لقد أخبره طائر عائد من المهجر أنه سوف يجد فـى شارع اسمه "هارلى ستريت" بلندن علاجاً لهذا الإنهاك الذى بدأ ينتابه منذ أن هجر أهـل قريتـه المحاريـث وصـاروا يستعملون الجرارات وآلات الحرب والحصاد، فلقد أزعجـه هديرها الدائم وحاول أن يجد علاجاً لدى عجائز "بئر الغنم"٠

ولكن بعض حكماء الطيور أشاروا عليه بالسفر للصـحة والاستشفاء فى الخارج، فمن العار أن يبقى طائر مثقف مثله يتطبب بأعشاب العجائز فـى عصـر الفضـاء والأقمـار الصناعية والأشعة تحت البنفسجية، فاستدان بعض الـدنانير وتكرم أغنياء الطيور فى قريته بمنحه بعض الهبات، وجـاء فى رحلته الأولى إلى "لندن" مدينة الاستشفاء والعلاج، فكـر أن يكترى لنفسه جناحاً فى فندق "بارك تاور" ليكون قريباً من الأثرياء، ولكن جناحه أشار عليه بالحرص والتدبير، فاكترى لنفسه غرفة صغيرة بمنطقة "البيزووتر" وابتهج عندما وجـد نفسه وسط جيرة عربية وفى قلب منطقة يتكلم أهلها لغة بنى قحطان، وأسعده أن يلتقى برائحة الشواء العربى، وأن يجـد أن أغنية "سلطان زمانى" هى الأغنية المفضلة لأهـل هـذا الحى، ولقد صفق بجناحه مبتهجاً وغنى مقلداً فريد الأطرش فى أغنيته "هلت ليالى حلوة وهنية " ولكن جناحه صاح متألماً لأنه صار هرماً ولم يعد يقوى على استقبال هـذه الشـحنات الانفعالية، فاعتذر له ووعده بعرضه هو أيضاً على أطبـاء "هاولى ستريت"٠

وفى اليوم التالى طوى الطائر الليبى جناحه فوق جسـمه العليل وذهب يبحث عن أحد المترجمين لكى يعينـه علـى التفاهم مع الأطباء والانجليز، ولكـنهم أخبـروه أن أطبـاء "هارلى ستريت" قد نسوا لغتهم أصـلية وصـاروا جميعـاً يتكلمون اللغة العربية بمختلف لهجاتها ولكناتهـا، فحمـد ا الذى انتصر لهذه اللغة بعد أن عاشت قروناً طويلـة تعـانى الإهمال والجحود، وها قد أصبحت اليوم لغة جهابذة الحكمة والطب اللندنيين.

جلس فى غرفة الانتظار فى إحدى العيادات وقد امـتلأت بإخوانه العرب وأخواته العربيات، أدهشه النظـام والهـدوء فتمنى لو أن عجائز "بئر الغنم" المتعـاملات بالطـب يقمـن بدوره تدريبية فى "هارلى ستريت" ليـتعلمن الـذوق والأدب والنظام، وعندما انتبه إلى وجود سكرتيرة حسـناء تضـرب المواعيد، نسى الطائر الليبى أمراضه وبدأ بمغازلتها، وحاول قرصها ولكن جناحه لكزه فى جنبه لكى يحترم نفسـه أمـام الأجانب وألا يسئ إلى سـمعه إخوانـه الليبيـين والعـرب عموماً.

تنجح بوقار شديد وأخبرها بأمله فى أن يجد علاجاً يبرى به أمراضه وحبذا لو تولت هى بنفسها علاجه، ضربت لـه موعداً مع الطبيب بعد شهرين، بكى وسأل جناحه أن يبكـى معه مستعطفاً مسترحماً أن تسرع له فى تحديد الميعاد، كانت سكرتيره رقية القلب وتشفق على الطيور المريضة، فـدبرت له موعداً بعد أسبوعين قبل فـى إكبـار يـديها الجملتـين المباركتين وخرج.

قال له جناحه وهما فى الخارج: "لا بد وأن هذا الطبيـب متعاقد مع وزارة السياحة البريطانية لإبقاء الطيور المريضة حتى تستنزف نقودها" عاد بعد أسبوعين قابلة الطبيب لمـدة دقيقة واحدة وقبل أن يعرف أمراضه سأله أن يذهب لإجراء التحاليل خرج شاكراً يسأل عن معامل التحليل لكن السكرتيرة الحسناء أوقفته لكى يدفع ثمن المعاينة، أخبرها بأن الـدكتور لم يعانيه بعد، وأنه لم يسمع منه سوى كلمـة واحـدة هـى "تحاليل" ولكنها أبلغته أن كل من دخل غرفة الطبيب وجـب عليه أن يدفع رسوماً قدرها مائة جنيهن وأن عليه أن يتكـرم فى الحال بدفع رسومه ورسوم جناحه.

استغرب الطائر الريفى لهذا الأمر، لقد أخبرته العجوز الإنكليزية التى تقوم بتأجير الغرف أن ثمن المعاينة عشرة جنيهات، وأخبره الرجل الإفريقى الذى يجاوره فى السكن بأنهم استغفلوه وأخذوا منه عشرين جنيهاً، فهل ارتفعت الأثمان وارتفع الاستغفال "والاستكراد" فى يوم واحد حتى صار مائة جنيه، أدرك أن أطباء "هارلى ستريت" يضعون المرضى العرب فى مقام رفيع وهم تقديراً وتبجيلاً يعاملونهم معاملة خاصة جداً، إنه يشكر للطبيب وحسنائه هذا الظن الطيب بأمواله، ولكن كل ما معه من أموال لا تكفى لزيارة أخرى، استغربت السكرتيرة الرقيقة أن يمتنع طائر عربى عن الدفع، وهناك من ورائه مكاتب صحية تتولى دفع فواتير المعاينات بلا حساب ولا نقاش، أخبرها أنه لا يعرف هذه المكاتب، فما هو إلا طائر فقير كان يغنى على أشجار "بئر الغنم" استلف بضعة قروش من كرام الطير لكى يتطبب بها من علله وأمراضه، وأن كل قرش يدفعه إنما يأتى من حر ماله، أخرجت السكرتيرة كتاب التسعيرة ونظرت فى حالته وسألته أن يدفع خمسين جنيهاً عن كل معاينة بدل المائة، أدرك أن للمرضى الموفدين عن طريق المكاتب والسفارات

العربية معاملة أخرى، يا لهم من رحماء هؤلاء الأطباء، تسعيرة للإنكليز، وأخرى لغير العرب وأخرى للعرب الذى يعالجون على حسابهم وأخرى لعرب السفارات والمكاتب الصحية، يا لها من حسبة عادلة حقاً.

دفع الخمسين جنيهاً، ولأن النفس قبل الصاحب فقد قرر أن يكتفى بعلاج نفسه وأن يتنازل عن علاج جناحه إلى فرصة أخرى.

لم يكن طائر "بئر الغنم" يدرك أن ما به من أمراض يستحق الإقامة فى المستشفيات والتعرض لمشارط الجراحين، أزعجه الأمر كثيراً، ولأنه لم يكن يعرف أن لهذا الدكتور حصة فى المستشفى الذى أمره بالذهاب إليه وأنه يستعمل عيادته كفخ لاصطياد الزبائن وإرغامهم على إجراء عمليات لا يحتاجون إليها، ذهب يسأل عن أمر هذا المستشفى، أخبروه هناك أن ثمن الإقامة مائة وخمسون جنيهاً فى الليلة الواحدة عداً مصاريف العلاج وأجره الأطباء ومصاريف العملية، وأن عليه أن يدفع الألف الأولى مقدماً، أدرك الطائر المسكين أن أمله فى العلاج على أيدى جهابذة الطب والحكمة اللندنيين قد ضاع إلى الأبد، وأن قدره ومصيره يحتمان عليه

أن يبقى تحت رحمة عجائز "بئر الغنم" رجع الطـائر إلـى غرفته جزيناً مهموماً يسأل جناحه المشورة، كان الجناح أكثر حيرة واندهاشاً لسلوك أهل المدينة والحضارة وأصحاب مهنة يسمونها مهنة الرحمة والإنسانية.

أخبرته العجوز التى استأجر منها الغرفة (وقـد صـارت هى الأخرى ضليعة فى لغة الضاد وتجيد الأحاديث بها مـع البشر والعصافير على السواء) أن "هارلى سـتريت" صـار الآن موضة قديمة، وأن عيادات جديدة للتطبيب بالأعشـاب صارت تكتسح الطب الحديث، وأن الملكة اليزابيـث نفسـها وعائلتها لا يتطببون إلا بهذه الأعشاب، وأن عليه أن ينتهـز فرصة وجوده فى لندن ويستفيد من هـذه الظـاهرة الطبيـة الحديثة، وألا يسمم جسمه بالمواد الكيماوية التـى تحتويهـا أدوية المصانع فهى تشفى علة وتمنح المريض علة أخرى.

نظر الطائر إلى جناحه مستغرباً، هل صارت الأعشـاب حقاً ظاهرة جديدة فى بلادكم، أما سمعتم بعجائز "بئر الغـنم" وأعشابهن لقد دار العالم حول نفسه دائرة قطرها ألف عـام، لكى يعود مرة أخرى إلى عجائز "بئر الغنم" وأعشابهن.

فمعذرة إذا يا حاجة "خديجة" وأنت يا حاجة "إمنانى" وأنت يا حاجة "غزالة" لم أكن أعلم أن العلاج الذى أخذتـه علـى أيديكن كان علاجاً ملكيا تسعى للحصول عليه ملكة بريطانيا ذاتها، بل إنكن بلا شك أكثر خبرة وأوسع تجربة من هـؤلاء الذين بدءوا حديثاً يهتمون بهذه الأعشاب، لقد كانت الغربـة اللندنية من أجل العلاج لا معنى لها، لينس أمر العـلاج إذا وليقض ما تبقى من الأيام فى اغتنام بعض المتع والسياحات، والوداع لهارلى ستريت وعباقرته ولصوصه، ومرحباً بك يا سوهو، مرحباً بمراقصك وسهراتك، فلعل طائر "بئر الغـنم" يجد لديك علاجاً لأمراضه.

-٢-

الطائر المغنى الذى تعود أن يعيش وحيداً مع جناحه جاء إلى لندن فأدهشه هذا الترحيب الذى انهمر عليه من كل مكان، ما أن علمت بوصوله أندية القمار فى هذه المدينة الكبيرة حتى أرسلت سيارات "لوموزين" بسائقيها تنتظره لكى يقبل دعوه هذه الأندية للعشاء!

أرسلت وكالة المرافقات الناعمات، باقة من الزهور فـى حجم الجبل إلى غرفته بمنطقة "بيزووتر" وتسأله فى رسـالة

رقيقة أن يتلطف بمخابرة الوكالة التـى تبـدى اسـتعدادها لإرسال كل نساء الوكالة إليه لإقامة حفلة سـاهرة بمناسـبة تشريفه مدينة لندن.

علمت الفنادق الكبيرة بالمدينة بأن طائر "بئر الغنم" قد أقام مع جناحه فى غرفة بحى البيزووتر، فأسلت تبلغه اعتـذارها لوجوده بغرفة لا تليق بمقامـه، وتعلمـه أن جنـاح الملكـة فيكتوريا وجناح الملك جورج، وجناح هنرى الثامن وجنـاح نابليون وجناح الإسكندر كلها الآن تحت أمره ليختار منها ما يشاء مكاناً لإقامته فى المدينة العامرة.

وكانت محلات السنا وصالونات التدليك الفاخرة قد أرسلت تعرض دعوتها لاستقباله فى لحظات الراحـة والاسـتجمام، وجاء محرر الصحيفة الإنكليزية المتخصصة بأخبار الـوطن العربى يصحبه فريق من المصورين يلتقطون الصور للطائر الصديق ويجرون معه حديثاً صحفياً يتناول قضايا السياسـة العالمية ويتمنون له إقامة طيبة ومفاوضات ناجحة مع رجال المال والأعمال، ويسألونه ألا ينسى حصتهم فى الإعلانـات التى تنشرها وكالاته وشركاته.

وكان محرر موسوعة عظماء الوطن العربى قـد جـاء بنفسه يملأ البيانات عن يوم ميلاده وتاريخ حياته وإنجازاتـه وأياديه البيضاء على مجالات الاقتصاد والصناعة، ولم يكـن طائر "بئر الغنم" يدرك أن فى حياتـه كـل هـذه الأمجـاد واعترف للرجل ببراءته وبأن لا علاقة له بـدنياً الصـناعة والاقتصاد فهو محب للأهازيج الشعبية وأغانى الفولكلور.

وجاء مدير أعظم النوادى الليلية بنفسه إلى زيارته يبلغـه بأن عرضاً جديداً يحوى ما لذ وطاب مـن فنـون الـرقص والغناء، وباعتباره طائراً عربياً محباً للغنـاء فـلا شـك أن المدرسة الغنائية الجديدة التى اخترعها صاحب هذا النـادى وهى"المغنيات العاريات" سوف تسعده وتسعد جناحه المشهور بذوقه الرفيع.

وجاء فى اليوم التالى مديراً الوكالـة المتخصصـة فـى القصور التاريخية يعرض عليه قصراً من قصـور العائلـة المالكة نزل تواً إلى السوق ولا يجد أحداً أكثر جدارة به من سعادة ليطيب له فيه الإقامة والغناء وإقامة الحفلات لأصدقائه من أبناء وبنات الطبقـة الراقيـة ورجـال ونسـاء المـال والأعمال.

وأرسلت متاجر لندن الكبيرة ومصانع الألبسة بها تعرض عليه تفصيلات جديدة لملابسه وملابس صديقاته التى صممها بيير كردان بنفسه لتليق بأمثاله من الطيور الثرية، وأخـرى تعرض صالون لويس الخامس عشر وسرير الملكة مـارى أنطوانيت ليتنعم بالنوم فوقه، وجاء وكيل شركات الطـائرات الخاصة يقدم أخر تصميم للطائرات التى يجب أن يسـتعملها بعد أن علم أن جناح طائر "بئر الغنم" قد أتعبه النقاش والغناء فما عاد قادراً على التحليق فى الأجواء العالية، أمـا وكيـل اليخوت فقد أراد له أن يتنعم هو وصديقاته بالنزهات البحرية واختار له يختاً يحوى عشرة مراقص وعدداً مـن البـارات وأحواض السباحة وملاعب التنس وكرة القدم، وجاء مـدير أحد المصارف يحمل خرائط المصـرف وأسـاليب الأمـن والحماية التى يستعملها المصرف فى حفظ ودائعـه، مؤكـداً بأنه سوف لن يجد مصرفاً أكثر أمانة على ملايينه مثل هـذا المصرف، وأن رصيده السرى سوف يبقى سراً دفينـاً لـن تصل إليه أعين الحساد والفضوليين.

أدرك الطائر الذى يغنى فيرد عليه جناحه الغناء سر هذا الاهتمام، لقد ظنوا أن كل طير عربى يأتى إلى لندن إنما هو

تمثال من الذهب الأسود فيتوافدون للعقه كأنـه قطعـة مـن "الآيس كريم".

ولكن الطائر الذى جاء من "بئر الغنم" لا يعرف طيـوراً عربية مثل هؤلاء، بل أنه لم يلتق فى حياته بمثل هذا الطائر العربى، أنه طائر صنعته لندن وإذاعاتها وصحافتها، حتـى صاروا يعاملون كل طائر يأتى من أية قرية عربية على أنه طائر بترو دولارى، لا يدركون أن هذا البتـرو دولارى لا يشكل واحداً فى المائة ألف أو المليون من أبناء هذا الوطن.

ولكنهم لأمر ما يعممون صورته ويجعلونه مـثلاً وحيـداً لكل أبناء هذا الوطن، كأنه عـالم فقـراء ولا كـادحين ولا موظفين وعمال وفلاحين وجنـود ولا أهـل فكـر أو علـم واجتهاد، جميعهم صاروا هذا الرجل المحشو ذهبـاً أسـود ودولارات ولا هدف له فى الحيـاة إلا أحـواض الشـمبانيا وأندية القمار وبنات الوكالات، الطائر الذى جاء مـن "بئـر الغنم" يعرف عرباً تيسرت أحوالهم فبنـوا بـدل الخيمـة أو الزريبة أو كوخ الصفيح بيتاً من حجارة، ويعـرف بعضـهم الأخر الذى صار أكثر يسراً فاستطاع أن يشـترى سـيارة، والآخر الذى صار لديه ما يكفى من المال ليذهب فى نزهـه

بعائلته إلى الخارج، هذا هو النوع من الأغنياء الذين عرفهم، قال يخاطب جناحه فزعاً:

هل رأيت يا جناحى عرباً بمثل هذا الغنى الخرافى!

من أين لى يا طائرى أن أعرف الطريـق إلـيهم، إنـك تشدنى إليك وتمنعنى من أن أحلق وحيداً فى الفضاء وأتعرف على هذه الطيور الأسطورية، فمن أين لى أن أعرف مـا لا تعرفه!

لقد اشتقت إلى مثل هذه الحياة الخيالية، فكيف يا جنـاحى العزيز يصير طائر فقير مثلى طائراً بترو دولارياً!!

تعجب الجناح لأحلام صاحبه وطموحاته، وقال جاداً:

تشترى لك جراراً وتحرث أودية "بئر الغنم".

ولكن كل محاصيلها لن تكفى لأن تجعلنى أقيم بالمستشفى أسبوعاً واحداً، فما بالك باستجابة دعوات هؤلاء الضيوف؟

إذ تسرف كل الدجاج "بئر الغنم" وتبعيـة فـى أقفـاص بأسواق المدينة!

ولكن كل دجاج "بئر الغنم" لن ينفـع لإرضـاء نـزوات صديقة واحدة!

تشتغل موظفاً فى البنك.

ولكن راتب الموظف لعمر كامل لن ينفع للإقامة فى فندق فخم لمدة أسبوع واحد!

إذا تسرق البنك.

إنها فكرة... ولكن كل النقود التى يحتويها مصرف "بئـر الغنم" لن تكفى لشراء شقة فى "بيز ووتر" فما بالك بالقصـر الملكى وسرير مارى أنطوانيت!

-٣-

كان عصفور "بئر الغنم" مغرماً بقراءة الصحف والمجلات العربية، ومنذ سنوات طويلة مضت صارت هواية القـراءة هى مصدر الترقية الوحيد فى حياته، يتابع بشغف ما تنشـره هذه الصحف من تحليلات سياسية ومن مقـالات فـى الأدب والفن، ويحرص على قراءة أركان التعارف وبريـد القـراء وحظك هذا اليوم أو هذا الأسبوع، إنه يقرأ بشغف وإعجـاب ويصدق على كل كلمة تنشرها هـذه الصـحف والمجـلات ويضع برنامج حياته ويبنى توقعاته المستقبلية على أساس ما تقوله، ورغم أن ذلك سبب له إحراجاً فى مناسبات كثيرة، إذا غالباً ما يجد أن ما يقرأه يختلف تماماً عما تأتى بـه الأيـام: يتحدثون عن النصر القريب فلا يرى سوى الهزائم، وتتنقـل

هذه الصحف حديث الملوك والرؤساء عن الوحدة الآتية فـلا يرى سوى المزيد من التمزق والتشـرذم ويقـرأ أحاديـث المعارك والنضال فلا يرى فى الأفق سوى ما هو عكس ذلك تماماً٠

وعلى رغم ذلك فهو لم يفقد ثقته بهـذه الصـحف، كـان يرجع هذا التناقض بين ما تقوله وبين ما يأتى به الواقع إلـى عوامل أخرى وأقدار كبرى لا علاقة لهذه الصحف بها، لكى يخرجها من دائرة المسؤولية، فليس فى الأمر غش أو كـذب كما تقول بذلك بعض الطيور الأخرى، وإنمـا هـى مجـرد ظروف خارجة عن إرادة هذا الكاتب أو ذلك المحرر، وكان طائر "بئر الغنم" يملك اشتراكاً فى صحف يومية ومجـلات سياسية وفنية، فهو يتـابع أيضـاً أخبـار نجـوم الطـرب والموسيقى وأبطال الشاشة الصغيرة والكبيرة، وقـد تـردد كثيراً فى المجيء إلى لندن، باعتبارها مدينة أجنبية وبالتالى فهى بعيدة عن هموم الوطن العربى وأخباره وبعيـدة عـن صحافته وكتابه ونجومه وهو لا يطيق أن يبقى ولـو ليـوم واحداً بعيداً عن أخبار الـوطن، وعـن أبـواب التحلـيلات السياسية التى تضئ أمامه الكثير مما صعب عليه فهمه مـن

وقائع وأحداث، كما أنه لا يطيق أن تنقطع عنه أخبار نجوى فؤاد وسعاد حسنى وفهد بلان وغوار الطوشى، وكان هذا الأمر يملأ قلبه قلقاً وضيقاً، إذ كيف سيواجه هذه العزلة وكيف سيعيش بعيداً عن الصحف والمجلات العربية، إنه لولاً المرض لما فكر فى المجيء إلى هذه المدينة الغربية ولما ارتضى أن يبتعد يوماً واحداً عن مصادر الأخبار والتحليلات، وها قد جاء اليوم إلى لندن مهموماً حزيناً لابتعاده عن هوايته المفضلة، وكانت دهشته كبيرة عندما وجد أن الأمر على عكس ما كان يتوقع، فقد وجد أن جميع الصحف التى كان يقرأها فى "بئر الغنم" والتى كانت تصل إليه بفضل البريد العربى متأخرة أياماً وأسابيع، متوفرة لدى الباعة فى لندن فى يوم صدورها، وكانت دهشته أكبر عندما اكتشف أن عدد لا بأس به من هذه الصحف يصدر فى بريطانيا ذاتها، بل إن حتى هؤلاء النجوم الذين يتابع أخبارهم من بعيد اكتشف أنهم تركوا مسارح بيروت والقاهرة ودمشق وبغداد وصاروا يقيمون حفلاتهم فى لندن ويحيون السهرات فى الأندية العربية التى تنتشر فى كل حى.

كانت سعادته غامرة وهو يكتشف أنه الآن أصبح قريبـاً من ينابيع الفن والفكر والصحافة العربية فى هذه العاصـمة الأجنبية التى ظن أن مجيئه إليها سيبعده عن أحبابه الكتـاب والنجوم فإذا به يقترب منهم أكثر فأكثر، لكن جناحه الذى لا يتوقف عن الثرثرة لم يجد فى الأمر مبعثاً للسعادة والسرور وإنما رأى فى ذلك مصدر للحزن والألم.

استغرب طائر "بئر الغنم" أن يجد جناحه حزيناً إلى هـذا الحد "كيف لا تبتهج أيها الجنـاح الحبيـب لهـذه الظـاهرة العظيمة، وكيف لا تغمر قلبك السعادة وأنت تـرى مشـاعل حضارتنا العربية تكتسـح اليـوم إحـدى أكبـر عواصـم الدنيا،وأنت ترى رموز الفكر والفن والثقافة فى بلادنا وقـد احتلوا مكاناً فى هذه الساحة الدولية، ألا ترى فى كـل ذلـك كسباً لقضيتنا العربية أيها الجنـاح الـذى أعمـت بصـيرته الإذاعات الأجنبية.

ولكن الجناح كان له رأى مخالف، لم يكن يرى فى هـذه الظاهرة أمراً يدعو إلى الفرح والابتهاج، إنما هى علامة من علامات الواقع المأساوى الذى يعيشه الوطن العربى.

لم يكن هذا الفن ليهاجر من أرضه لولاً أن مراكز إشعاع فى وطننا العربى انسحبت من دائرة الفعل والتأثير والعمـل العربى وهاجرت من مواقعها القيادية فى الفكر والفن.

لم يكن هذا التردى ليحدث لولاً أن الأرض العربية تهاجر من تحت أقدامنا فنجد أنفسنا لاجئين فوق أرض ليست لنـا، لاجئين إليها بفكرنا وصحافتنا وأغانينا، فكيف إذا يا طـائرى العزيز تصفر وتغنى سعيداً مبتهجاً لواقع المأساة هذا؟

أحس الطائر بالخجل وهو يستمع إلى حديث جناحه الـذى عكر عليه صفو مزاجه وأفسد سعادته، فقرر بينه وبين نفسه أن يتدبر مناسبة قريبة لإجراء عملية جراحية يستأصل بهـا هذا الجناح اللعين، لكى يرتاح منه إلى الأبد.

- ٤ -

قرر طائر "بئر الغنم" أن ينتهز فرصة وجوده فى لنـدن وأن يستفيد من الوقت الضائع بعد أن تبخرت أحلامـه فـى العلاج على أيدى أطباء "هارلى ستريت" وأن ينتسـب إلـى إحدى مدارس تعليم اللغة الإنكليزية ليصـبح متكلمـاً بهـذا اللسان الأجنبى الذى صار لغة ثانية لأغلـب بـلاد الـدنيا، خاصة وأنه الآن يحمل جواز سفر يتيح له السياحة والرحيل،

ولعله يكون محظوظاً فيصير عضواً بأحد المؤتمرات ولعلهم يكتشفون بلاغة جناحه فيعتبرونه مفكراً عربياً كبيراً ويدعونه إلى كل الندوات الفكرية والأدبية والسياسـية التـى يقيمهـا العرب فى مختلف عواصم العالم، ولعـل أحـدهم يكتشـف موهبته فى الغناء فيصير ضيفاً على موائد وحفلات الملـوك والرؤساء، حتى لو لم يحقق كل هذه الآمال وبقـى موهبـة مغمورة فيكفيه أن يلتقط مـن المدرسـة بعـض الكلمـات والعبارات يستعملها فى أحاديثه مع طيور "بئر الغنم" فيحرز منهم اعترافاً بتفوقه وثقافته العالمية٠

ذهب للتسجيل بمدرسة تعليم اللغة الإنكليزية فأبلغوه هناك أن المدرسة وحدها لا تكفى إلا إذا عزز دراسـته بتحقيـق ارتباط عاطفى باللغة، وأن هذا الارتباط العاطفى يأتى عـن طريق عقد صداقة مع إحدى بنات الإنكليز لتكـون حـافزاً ودافعاً للاستغراق فى لغة أجنبية والتقاط الكلمات من شفتيها والبحث فى القواميس عن كلمات رقيقة ينقل بهـا عواطفـه وانفعالاته إليها، عدا عن ذلك فإن لا أمل له فى تعلم اللغـة، وقع طائر "بئر الغنم" فى حيرة من أمره استنجد بجناحه عله يجد لديه حلاً، لقد عاش طوال عمره طائراً مستقيماً يراعـى

حدود ا فى سلوكه وأفعاله وأقواله، اشـتهر بـين طيـور المنطقة بالورع والتقى والامتناع عن المعاصـى والـذنوب، حتى إذا رأى امرأة ترد على البئر استحى أن يرفـع إليهـا عينية خشية أن يتسرب الضعف إلى قلبه، فما بالك وقد صار الأمر المطلوب ليس هو مجرد النظر أو الاسـتماع، وإنمـا عليه أن يعقد علاقة عاطفية غرامية، وأن يتقلب فوق جمـر الهوى حتى يتيسر له معرفة اللغة، يا له من شرط عجيـب، قال يخاطب جناحه:

ما علاقة الحب باللغة أيها الجناح الحكيم؟

فشن الجناح فى ذاكرته عن شئ قرأه يسعفه بـالرد فلـم يجد، أرتبك قليلاً، ثم قرر أن يلقى عبارة عامـة رداً علـى صاحبه.

أليس الحب هو أصل الأشياء؟

نعم ... نعم ... ولكن ليس هذا النوع مـن الحـب الـذى يصحبه فسق وفجور ورجس من عمل الشيطان.

أراد أن يقلع عن فكرة تعلم اللغة، وأن يتنازل عن أحلامه فى الإقامة بالفنادق الفخمة ضيفاً علـى أصـحاب النـدوات والمؤتمرات ولكن جناحه ألح عليـه فـى أن يمضـى فـى

الموضوع وأن يقدم ما يحتاجه الأمر من تضحيات كلها تهون فى سبيل غرض عظيم هو طلب العلم.

رضخ للأمر الواقع وذهب الطائر التقى يبحث عن صبية إنكليزية جميلة يعرض عليها حبه، ولكن الصبايا الإنكليزيات اختفين فجأة من الدنيا، فتش عنهن فى المدرسة التى يذهب إليها، هى حقاً تعج بالفتيات، ولكنهن أجنبيات جئن مثله من أجل اللغة، وهن أيضاً يبحثن عن رباط عاطفى مع شباب أهل اللغة، ووجد أن الحى الذى يقطنه يمتلئ ببنات لغة الضاد وكذلك الحى المجاور.

ما العمل يا جناحى العزيز؟

لم تبق سوى المراقص.

ولكن طائر "بئر الغنم" التقى الذى لم يكن يعرف وهو فى قريته سوى طريق المسجد، يكره هذه الأماكن التى تمتلئ ضجيجاً ودخانا وظلام وآثاماً، إنها لا تليق بمن قضى عمراً فى طاعة ا وخدمته... ولكن جناحه ألح عليه قائلاً:

لماذا الخجل والحرج، فهذه لندن وليست "بئر الغنم"! تعوذ با من الشيطان الرجيم، بسمل وحوقل، ومضى كارهاً يبحث عن أحد المراقص فى منطقة "سوهو" هبط إلى محل

يقع أمتاراً تحت الأرض، شاهد المكان يمتلئ دخاناً وعـواء وضجيجاً فأحس من فوره بالصداع وقرر العودة فى الليلـة نفسها إلى "بئر الغنم" ولكن جناحه طالبة بالصمود فاكتسـاب اللغات لا يأتى سهلاً بلا جهد وتعب وصداع.

اقتحم الطائر الغريب هذا المكان الصاخب، وجـد نسـاء ورجالاً يرقصون وكأنهم يتصارعون،لم يعرف كيف يبدأ ولا كيف يخاطب الناس فى هذا المكان الملعون، انزوى بجناحـه فى ركن مظلم يرقب ما يجرى، ولكن ما الفائدة من المجيء إذا لم يتحرك ويصير جزءاً من هذا الجو، ولكنه لا يجد فـى نفسه الشجاعة، أشار عليه جناحه بتناول كأس مـن الخمـر يقضى على حرجه ويحل عقدة لسانه، ولكن طائر "بئر الغنم" لم يتذوق خمراً فى حياته، لقد عاش طائراً طيباً مسـتقيماً لا يعرف شراباً إلا مياه الينابيع والأمطار، فكيـف بعـد هـذا العمر، يهدم وفى زيارة قصيرة إلـى إحـدى علـب الليـل بسوهو، كل الذى بناه.

إن للضرورة أحكامها.

قال له جناحه،استغرب طائر "بئر الغنم" أن يجد جناحـه يتحدث بهذه اللهجة.

لقد عرفتك جناحاً حكيماً تأمر بـالمعروف وتنهـى عـن المنكر، فما لى أراك اليوم تشجعنى على الإثم والفجور، مـا الذى فعلته بك لندن يا جناحى الطيب القلب!

كان طائر "بئر الغنم" حقاً وصـدقاً مـذعوراً مـن هـذا الانحراف الذى أصاب جناحه، ولكن الجناح أجاب قائلاً:

إنك تهدف إلى غاية نبيلة، ولا تشرب لوجه الشراب، إنما من أجل العلم والمعرفة.

ولكن ذلك حرام ومعصية.

إنك مجرد طائر من طيور "بئر الغنم" فلماذا تفرض على نفسك سلوك طيور الجنة وأنت لست واحداً منها؟

ولكن.

أطلب الكأس الأولى ولا تتردد...

أعجبه أن هناك شراباً يطلقون عليه "الجن" ولأنه طـائر شعبى من طيور "بئر الغنم" فهو مـا زال يحمـل رواسـب العقائد الشعبية التى تؤمن ببأس أهل الجن وقواهم الخارقـة، تفاءل بهذا الاسم وطلب كأساً أخذه فى رشفه واحدة، احترق جوفه وأصابه السعال، ولكنه تجلد وبقى ينتظر المفعول.

لم أجد فى هذا "الجن" جناً.

كيف تريد للجنى أن يتحرك منذ القطرة الأولى... أطاب له كأساً أخرى ...

أحرق جوفه بكأس ثانية وثالثة، بدأ يحس بمفعـول هـذا الشراب ويجده اسماً على مسمى، شعشعت فى رأسه أبخـرة الخمر، وبدا المكان وضجيجه وبذاءاته شيئاً مسـلياً طريفـاً، استعذب الجلوس إلى الشراب ونسى المهمة التى جـاء مـن أجلها، أراد جناحه تذكيره بألا يسـرف فـى الشـراب وأن يتحرك ليبحث عن الرباط العاطفى اللغوى الذى جـاء مـن أجله، ولكن طائر "بئر الغنم" الذى استعذب شـراب "الجـن" وصل إلى حالة نسى معهـا اللغـة والـروابط والعواطـف والواجبات، أزعجه جناحه بهذه النصائح فأراد أن يطـرده، ولكنه وجد نفسه مربوطاً إليه رباط لا فكاك منـه، فجلـس يكرع شرابه فى غيظ ويبكى حظه التعس، وفى حـين كـان الجناح المهيض يراقب الموقف فى حزن وصمت.

-٥-

استغرب طائر "بئر الغنم" عندما وجد أن ما ظنه من أبسط الأمور وأيسرها، وهو إنشاء علاقة عاطفية مع إحدى الصبايا الإنكليزيات هو فى الواقع مهمة مستحيلة.

لم يجد تفسيراً للأمر وهو يرى هذا الفيض من النساء اللاتى يملأن الحدائق والمتاجر والمراقص والحانات دون أن يجد واحدة فى قلبها رحمة تعين الطيور الغريبـة، الفقيـرة المعذبة على تعلم اللغة.

لعله إذا غطاء الرأس الذى جاء به من "بئـر الغـنم" ورفض أن يتنازل عنه، هو الذى يقف عائقاً بينه وبين هؤلاء الصبايا، قرر طائر "بئر الغنم" أن يعمل بالمثـل القاتـل "إذا كنت فى روما... فافعل ما يفعله أهلا" وخلع عن رأسه ذلـك الغطاء، وذهب إلى أقرب حلاق ورجاه أن يصنع له تسريحة مثل أهل الفن والغناء، ومر على متاجر "كوينزوى" فاشترى لنفسه بنطلون "جينيز" وحذاء "الهاى بوتس" وقميص "الـ ت ... شيرت" الذى يحمل صورة الأمير تشارلس والأمير ديانا وهما يتعانقان، خلع الملابس التى جاء بها من "بئـر الغـنم" ورماها فى صندوق النفايات وارتدى لباسه اللندى الجديـد، وذهب يغرد ويزقزق فى أنحاء المدينة بشخصـيته الجديـدة باحثاً عن الحب، رأى العشاق ينتشرون فى كل مكان، رآهم أزواجاً يتعانقون فى محطـات القطـارات وهـم يتبـادلون القبلات، ورآهم فى المطاعم والفنادق والحانات يجلسون إلى

المناضد التى تضيئها القناديـل يسـتمعون إلـى الموسـيقى ويتبادلون الأنخاب، ورآهم فى الحدائق يفترشون الأعشـاب الخضراء يتهامسون ويتطارحون الغرام، ورأى فى ذلك كله مثالاً لبهجة الحياة ودورتا المتجددة المترعة بالحب والجمال، واشتهى أن ينضم إليهم وأن يصبح عاشقاً مثلهم وأن يسـتمع هو أيضاً بـالقبلات والأحاديـث الناعمـة والارتمـاء فـى الأحضان الدافئة، فمضى فى رحلة البحث عن الحب بجـرأة وشجاعة، طرد من رأسه جميع تلك الأفكار الريفية التى جاء يحملها معه من قريته، وتغلب بإرادة الطيور وعزيمتها على مشاعر الخجل والتردد وانطلق يسـعى فـى الأرض بقلـب يتحرق شوقاً إلى لقاء الأحبة.

كان قد تعلم فى درسه الأول بمدرسة اللغة الإنكليزية كيف يقول "أنا أحبك" فاتخذ منها سلاحاً يقتحم بـه الميـادين ووسيلة لغزو القلوب وتعويذه ينادى بها إله الحب "كيوبيـد" فيأتى حاملاً سهامه يخوض معه فى هذه المعركـة النبيلـة، ذهب يلقى بهذه الكلمة أمام كل فتاة تقابله فى الطريق، يتفنن فى استعمالها، يتهدج صوته ويتلون بكل التعبيرات ويستعير حنجرة جديدة غير حنجرتـه القرويـة، حنجـرة عصـرية

تستجيب لهذه الرطانة، يشد ملامح وجهـة ويشـحذ عينيـه ويلوى منقاره ويقولها، بصدق وحماس يقولها، بكل ذرة فـى كيانه، بكل خلجة من خلجاته.

أحبك... أحبك... أحبك

بألم وحين وانفعال يقولها، بكل حرمان السنين، وجفـاف الأعوام التى قضاها فى "بئر الغنم" دون أليف، يقولها، وكأن يقولها فتهتز كل ريشة فى جسمه النحيف الصغير، أحبـك، أحبك،أحبك، وهو لا يقولها مازحـاً ولا هازئـاً أو مجـرد محاولة لاصطياد الفتيات، إنه بحق يقولها، وبحق يعنيها، إنه بحق يحبهن جميعاً، يحب كل واحدة منهن، كل جميلة تعبـر الطريق، يحبها ويرغب بها ويتمنى أن تقبل به متعبـداً فـى محرابها، ولكنه وجد أن هذه الكلمة المشحونة حبـاً وشـوقاً وعاطفة لا تجد سوى الصدود والنفور، بل إن بعضهن تفـر هاربة من أمامه كأن تلك الكلمات التى يقولها ببراءة الطيور تفزعهن، ولكن ذلك لم يحبط من عزيمته أو يجعله يتراجـع عن تحقيق الهدف المنشود.

أحبك، أحبك، أحبك، سيقولها ويقولها ولـن يمـل قولهـا وإعادتها، لترفضه واحدة وثانية وثالثة لترفضه عشر نساء أو

عشرون امرأة أو مائة أو ألف، ولكن فى النهاية لابد أن يجد واحدة، واحدة فقط يكون فى صدرها قلب كقلوب الطيـور، براءة ورقة وعذوبة وعطفاً ونبلاً، ترفق بحالـة، وتكتشـف الصدق فى حديثه، فتستجيب لندائه وتبادله حباً بحب، ولكـن الأيام تمضى وهو معها يواصل بحثه الدائب عن الحب دون جدوى، والمرأة التى لها قلب كقلوب العصافير لا تأتى ونساء هذه المدين ما زلن يرفضن دعوته إلى الحب ويهـربن مـن أمامه، إلى أن بدأ حماسه شيئاً فشيئاً ينطفئ، وكلمـة أحبـك التى كان يقولها بصدق ولهفة وحماس وصـار الآن يقولهـا بفتور وبرود ووهن، وأحياناً يقولها بغيط وقرف كأنه يقـول "أنا أكرهك وأحقد عليك وأتمنى أن أصفعك".

حاول أن يجد تفسيراً لهذا الرفض المستمر، لقد ارتـدى لباساً كلباسهم وحاول مجاراتهم فى الطعام والشراب والكلام وحلاقة الرأس، ارتاد أماكن لهوهم وفسقهم وفجورهم وبـاع قريته وأخلاقها واشترى شيئاً من أخلاقهم وسلوكهم، فلمـاذا يرفضونه ويعاملونه كجسم طارئ غريب، وكأننا لسنا جميعاً أبناء أسرة إنسانية واحدة، لعل هذا الرفض جاء بسبب كونـه طائراً من طيور الوطن العربى، لعل حقداً قديماً بائتـا ضـد

العرب هو الذى يمنع هذا الالتقاء العاطفى بينه وبين نسـاء هذه المدينة أو لعل شيئاً ف سلوك بعض التجار العرب الذين يتعاملون مع فتيات "الوكـالات" قـد أعطـى بنـات لنـدن "الشريفات" انطباعا خاطئاً عن جميع العرب الـذين يـأتون للسياحة، فذهب هو ضحية هذا الانطباع الخاطئ، لم يجد فى الحقيقة تفسيراً يرضيه، حقاً لقد جاء من بلـد أخـر، وبيئـة أخرى، وثقافة أخرى،ولكن ذلك لا يمنع هذا اللقاء الإنسـانى بدليل أنه يرى علاقات حب تنشأ بين مختلف الذين ينتمـون لأجناس وثقافات مختلفة، فلماذا لا يكون حظـة مـع بنـات الإنكليز مثل حظ هؤلاء الذين يأتون من اليابان أو الصين أو جامايكا... لماذا هو بالذات حتى لو كان للأمر علاقة بهـذه الثقافات والأجناس والطبائع المختلفة، حتى لو كان له علاقة بالأحقاد الحديثة والقديمة، ألا يقولون أن الحب "أعمى"؟! وإنه فى جنونه الأعمى يكتسح كل العقبات والسـدود والفـوارق؟ فلماذا لا يأتى هذا الأعمى ولو لمرة واحدة فى طريقه لمـاذا يتجنبه ويهرب منه ويتخذ منه هذا الموقف العدائى الـذى لا يقدر عليه حتى المبصرون؟

إن فى الأمر سراً شئ غامض ليس له إلا تفسـير واحـد وهو أن أحد طيور "بئر الغـنم" ممـن يبـادلهم الخصـومة والعداء، ومن منطلق الحسد والغيظ ذهب إلى أحد فقهاء "بئر الغنم" وكتب له مكتوباً لعنة تطارده وتقطع عليه فرصـة أن يذوق كغيره مباهج الحياة.

جلس فى الحديقة وحيداً وحزيناً، يفكر فيمن يكـون هـذا الطائر الحقود، فى حين كان الأمير تشارلز والأميرة ديانـا فوق صدره يتعانقان!

-٦-

كانت دهشته عظيمة وهو يرى الأمطار تهطل فى لنـدن بهذه الغزارة.

لم يكن طائر "بئر الغنم" يظن أن هناك فى الدنيا بأجمعهـا أمكنه تهطل بها الأمطار بمثل هذه الكلمات الهائلة.

تذكر سنوات الجفاف التى تمر بقريته، تذكر الأشجار التى تذبل حتى لا تجد الطيور مكاناً تبنى فوقه أعشاشها.

تذكر الأرض الصفراء التى ترفض أن تنبـت الأعشـاب وتذكر أحاديث العجائز عن المجاعات التى كانـت تشـهدها قريته نتيجة لاحتجاب الأمطار.

تذكر أيضاً صلاة الاستسقاء التى يقيمها أهل القرية من أجل أن تجود السماء بقطرات من المطر، وفرحة الناس عندما يأتى المطر مرة أو مرتين كل عام.

فتراهم يقيمون الأفراح والولائم ويوفون بالنذور لأضرحة الأولياء ويخرجون المحاريث من المخازن ويذهبون فى جماعات لحرث الأرض وهم يملئون الدنيا أهازيج وأغانى، تزغرد النساء دونما انقطاع ويخرج الصغار يرقصون تحت المطر وهم يغنون:

"يا مطر يا خالتى... " كأنهم يعلنون انتمائهم إلى المطر ويحتفلون بصلة النسب التى تربطهم به.

تهطل الأمطار فتتحول القرية بنسائها وأطفالها ورجالها وشيوخها وحيواناتها وطيورها إلى عرس أو مهرجان.

وها فى اليوم يأتى إلى بلاد الإنكليز للمرة الأولى التى يغادر فيها قريته إلى خارج الحدود، فيكتشف لدهشته الشديدة أن الأمطار تهطل لأيام وأسابيع دون انقطاع ولا أحد يفرح أو يغنى أو يخرج فى تظاهرات واحتفالات ابتهاجاً بقدوم المطر.

لا أحد يرى فى هذه الأمطار علامة خير وبركة ورحمـة من السماء كما يفعل أهل قريته، بل على العكس مـن ذلـك إنهم هنا يتذمرون ويسخطون ويبـدون اسـتيائهم لمجـيء المطر، ولا يبتهجون إلا عندما تختفـى السـحب وتشـرق الشمس وتتوقف الأمطار عن الهطول.

تأسف لحياة المذلة التى ارتضتها الأمطار لنفسها، تمنى لو أن لهذه الأمطار بعض المدارك التى تهتدى بها إلى عواطف الناس لأنكرت إذا على هـؤلاء الإنكليـز اسـتهتارهم بهـا واستنكارهم لمجيئها، ولهجرت أرضهم وذهبت من فورهـا إلى المكان الذى تجد فيه ترحيباً واحتفالاً إلى قرية "بئر الغنم" حيث يستقبلها الناس بالأهازيج والغناء ويعتبـرون مجيئهـا تكريماً لهم وتشريفاً.

ولقد عاش هذا الطائر السائح أياماً من البهجـة الحقيقيـة وهو يشاهد هذه الأمطار التى تهطل دون انقطـاع، وكـان يخرج سعيداً إلى الشارع لكى يلتقى بها ويعانقها، وفى حـين كان الناس يحملون المظلات ويحتمون بالأبنية خوفـاً مـن البلل، كان وحده الذى يمشى وسط الأمطار حاسر الرأس بلا مظلة وبلا محاولة للاحتماء بالجدران فرحاً بأن يغتسل بمياه

الأمطار تباركه وتمسح عنه أحزان سنوات طويلـة قضـاها دون أن يرى المطر إلا نادراً.

لقد ظن للوهلة الأولى أن هذه الأمطـار سـوف تصـنع طوفاناً مثل طوفان سيدنا نـوح يغـرق المدينـة وأبنيتهـا وسكانها،ولكنه اكتشف أن هذه الأمطـار صـارت بالنسـبة لهؤلاء الناس جزءاً من حياتهم اليومية، إنها تمطر وتمطـر دون أن تترك فى الشارع أثراً، دون أن تمتلئ الدنيا بـالبرك والمستنقعات دون أن تتوقف الحركة أو يتعطل المـرور أو تغرق المتاجر والبيوت فى مياه الأمطار كما يحدث أحياناً فى قريته عندما يتواصل هطول المطر لأكثـر مـن سـاعة أو ساعتين.

لقد جعل المشى تحت المطر رياضة يمارسها كـل يـوم وعلى رغم نزله البرد التى أصابته نتيجة لهذه الحماسة، فهو لم يندم أو يرى فى ذلك تهـوراً أو مبالغـة فـى الحماسـة والاحتفال بمجيء المطر إنه ثمن بسيط يدفعه راضياً مقابـل ما أحس به من نشوة وسعادة، حتى عندما كان مرة يتجـول بميدان الطرف الأغر ورأى السحب فجأة تتجمع فى السـماء كقطعان الذئاب، والأمطار تنهمر بغزارة وكثافة، لم يهـرول

إلى محطة القطار أو يجرى محتمياً بالأبنية القريبة لقد رفـع وجهة إلى السماء يستقبل المطر ثم دار حول نفسـه دورات سريعة وكثيرة ثم بدأ يرقص تحت المطر ويغنى بمثل ما كان يفعل الأطفال فى قريته.

يا مطر يا خالتى.

يا مطر يا خالتى.

فى حين كان السواح الذين يحتمـون بالأبنيـة القريبـة والشرفات العالية يخرجـون آلات التصـوير ويلتقـون لـه الصور!

-٧-

كان طائر "بئر الغنم" أثناء إقامته فى لندن مندهشـاً لهـذا الوضع الذى وجد عليه الكلاب فى بلاد الإنكليز لقـد عـاش طوال عمره فى بئر الغنم يكره الكلاب ويخشاها ولا يطيـق الاستماع إلى نباحها، ويعرف أن الكلاب جنس ملعون عاش يعادى الطيور وينكل بها عبر العصور، ولقد كان يظن أنه ما أن يغادر بئر الغنم حتى يرتاح من رؤية الكلاب، فهو يعرف أن لندن الكبيرة لا تحتاج إلى كلاب ترعى أغنامها، لأنه ليس بها أغنام، وأنه سيعيش فى لندن أياما هادئة فى منجى مـن

شر هذه الكائنات التى يكرهها وتكرهه، ولكن ما إن حط بـه جناحه فى لندن حتى اكتشف ويا للعار أنهـا مدينـة تعـج بالكلاب، وهى كلاب لا تقبع فى حظائرها، وإنمـا تطـوف الشوارع وتتنزه فى الحدائق وتـدخل المقـاهى والبـارات، والأدهى من ذلك أنه لقاها تحظى باحترام وتبجيل لا تحظـى به كل الحيوانات الأخرى التى هى بلا شك أكثر منها كرامة ونبلاً مثل الطيور، وكاشف جناحه قائلاً: ألا ترى معى هـذه الظاهرة؟ إنهم يعاملون الكلاب وكأنها بشر!

فلقد رآهم يقيمون فى لندن أندية للكلاب وملاعب خاصـة بها، وينشئون العيادات الطبية والمستشفيات التى تتخصـص فى علاجها، ورأى الصحف الإنكليزية تخصص أجزاء فـى صفحاتها للعناية بالكلاب، وعلم أن هناك معامل وشـركات يشتغل بها مئات العمال تقـوم بتعليـب اللحـوم والأطعمـة للكلاب، وازداد غيظه أكثر عندما اكتشف أن أغنياء كثيرين يوصون بثرواتهم بعد مـوتهم للكـلاب، يتركـون أبنـاءهم وعائلاتهم ومن تربطهم بهم صلة الدم والقربى أو صلة الحب والصداقة ويفضلون عليهم الكلاب ما الذى جـرى لعقـول هؤلاء الناس حتى يعاملون الكلاب هذه المعاملة المتميزة، إن

الكلاب على رغم ما تخطى به من معاملة قاسية فـى بئـر الغنم فإن الناس يحتفظون بها لأنها تقضى لهم عمـلاً، إنهـا هناك تتولى رعاية الشياه وتقوم بحراسة حظائر الحيوانـات، ولكن ما الذى تفعله الكلاب هنا حتى تلقـى هـذه الحفـاوة والرعاية، إذا أنه لا يمكن أن يتصور للكلاب عملاً فى مدينة مثل لندن، فليس هناك شياه يمكن أن ترعاها ولـيس هنـاك حظائر يمكن أن تحرسها، وليس هناك عقارب كى تطاردها، وليس هناك ثعالب وذئاباً كى تشتبك معها فى عراك ذوداً عن بيت صاحبها.

إنها كلاب عاطلة، عاجزة عن تقديم أى عمـل، أفسـدها التدليل، لم تعد تنفع لقضاء مصلحة أو القيام بحراسة، فهـى كلاب لا تنبح مثل كلاب بئر الغنم وهى كلاب لا تعض ولا تطارد الغرباء، تتعطر بالشامبو وتتنزه فى الحدائق وتسـبح فى البحيرات وأحواض السباحة، يمشطون لها شعرها كـل يوم ويطعمونها أفخر الأطعمة، كلاب فقدت طبيعتها ككـلاب ولكنها لم تصبح بشراً بعد.

لابد أن فى الأمر سراً!

قال طائر "بئر الغنم" يخاطب جناحه.

ولن يغمض لى جفن حتى أعرف هذا السر!

لقد رأى أنهم يخصصون البرامج فى الشاشـة الصـغيرة للترفيه عن الكلاب، ويقيمون لها المسابقات، ويحتفلون بأجمل كلب وأسرع كلب وأنبل كلب، فالكلاب هنا صارت لها أيضاً أنساب وعائلات ولكل كلب شجرة العائلة التى ينتمى إليهـا والسلالة التى ينحدر منها وأمور كثيرة كأنها تحدث فى عالم الخيال، فهذه بيوت لإقامة الكلاب التى غضبت من أصحابها، وهذه جمعيات للدفاع عن حقوقها،لم ير كلباً واحد مهمـلاً أو جائعاً أو قدراً، كلها كلاب تعيش عيشة الأمراء لعله الخيـر الذى يفيض على البشر، قال فى نفسه - فما إن يكتفى البشر من هذا الخير الكثير حتى تجد الحيوانات الأليفة مثل الكلاب فرصتها وتأخذ نصيبها ولكن لدهشته الشديدة وجد فى لنـدن بشراً لا يحظون بمثل هذه المعاملة التى تلقاها الكلاب، فمـا أكثر الفقراء والمتشردين، نساء ورجالاً ينامون فى الطرقات ويستجدون لقمة العيش ويرتدون الملابس القذرة ولا يعرفون حمامات الشامبو ولا اللحوم المعلبة، ومع ذلك يأتى أغنيـاء هؤلاء القوم وبدلاً من أن يوصوا بثرواتهم لهـؤلاء الفقـراء يتركونها حكراً على الكلاب، بدأ الأمر غامضاً علـى إدراك

الطائر المسكين، وحاول جناحه أن يشاركه هذا الهم، فقـال مفسراً هذا اللغز:

لعلهم اكتشفوا فى الكلاب خصالاً لم يكتشفها أهـل بئـر الغنم.

اغتاظ الطائر من جناحه الذى لمس فى لهجتـه محابـاة للكلاب فقال غاضبا :

ما عرفنا الكلاب إلا هذه الكائنات البذيئة التى لا كرامـة لها، ليس لها ذكاء الثعالب، ولا شجاعة النمور ولا أجنحـة الطيور ولا جمال الغـزلان ولا حكمـة القـردة، ولا تقـدم للإنسان حليباً مثل الشياه والأبقار ولا بيضاً مثل الدجاج ولا عسلاً مثل النحل، ومع ذلك فإن هـؤلاء البشـر يرتكبـون المجازر فى حق كل هذه الكائنات ما عدا الكلاب!

كان طائر "بئر الغنم" متحاملاً على الكلاب، ولقد حـاول جناحه بما له من رجاحة عقل أن يشير إلى بعـض مزايـا الكلاب مثل الوفاء كما أن لها حاسة شـم عرفـت أجهـزة الشرطة كيف تستفيد منها ولكن طائر "بئر الغنم" مـا زال لا يجد للكلاب مميزة تجعلها تحظى بمركز متقدم على الإنسان نفسه!

لم يكن طائر "بئر الغنم" لينكر أن ظاهرة العطـف علـى الحيوانات واحترامها ظاهرة حضارية تدل على رقى الإنسان وتحضر سلوكه عندما يعامل رفاقه من الكائنـات الأخـرى معاملة كريمة، ولكنه رأى فى الأمر مبالغة لا تفسير لها، ثم وجد بعد إقامته الطويلة فى لندن أن السر فى البشر أنفسـهم وليس فى الكلاب.

أكتشف أن هذه العواصم العالمية الكبيرة تحـدث أحيانـاً خللاً فى العلاقات بين الناس وتزرع المسافات بيـنهم فـلا يحس الواحد بالآم الآخر وهمومه، فنشـأ أمـراض الوحـدة والاكتئاب ويفتقد التواصل بين البشر، فيلجأ بعض الناس إلى إنشاء علاقات مع حيوانات أليفة مثل الكلاب يبـالغون فـى رعايتها وتدليلها لكى تملأ شيئاً من فراغ حياتهم وتوفر لهـم رفقة وتسلية.

أدرك طائر "بئر الغنم" أن أمراض الوحـدة والاكتئـاب والود المفقود بين الناس لم تصل بعد إلى قرية بئر الغنم التى يحمل لها ضغينة لا تنضب سوف لن تعرف اللحوم المعلبـة وأحواض السباحة وحمامات الشامبو لعصور طويلة قادمة.

بدأ الملل يتسرب إلى طائر "بئر الغنم"

انتهت أيام الدهشة الأولى، والفت عيناه المشـاهد التـى أثارت إعجابه عند بداية وصوله إلى لندن، وصارت المدينة الكبيرة تكتسب روتينية الأشياء المألوفة.

أرضى السائح فى نفسه فضوله وانتهى الأمـر، شـاهد المتاجر الكبيرة والحدائق الفسيحة التـى تشـقها البحيـرات والأنهار، وتجـول فـى الأنديـة والمعـارض والميـادين والمتنزهات والتقطوا له صورة بجوار مسز تاتشر فى متحف الشمع، وأخرى بجوار إحدى غـوريللات حديقـة الحيـوان وثالثة أمام قصر باكنغهام ورابعة تحت سـاعة "بيـغ بـن" تضاءل الإعجاب والحماس وبدأ الحنين إلى "بئر الغنم" يمـلأ عليه عقله وقلبه وبدأت تعود إلى ذاكرته جلسات الطيور فوق الأشجار والثرثرة فى السياسة مع عجائز القرية والمعـارك والخصومات التى تنشب بجوار البئـر وأهـازيج الأطفـال وأغانيهم وشتائمهم فصار يحس بالوحشة فى هـذه المدينـة الكبيرة التى لا يفهم لغتها ولا يستسيغ أغانيها ولا يرى فـى موسيقاها سوى إزعاج يخرق طبلة الأذن.

كان "طائر بئر الغنم" فى بداية زيارته إلى لندن يستغرب كثيراً لمقالات بكر عويضة التى يتحدث فيها عـن الغربـة، فكيف قال يخاطب جناحه يمكن أن يحسن الإنسان بالغربة فى مدينة تضج بالجمال والبهجة والحياة، تـوفرت لـديها كـل وسائل الترفيه وتنوعت فيها مجالات الحياة وأوجـه المتعـة التى تحتاج إلى عمر كامل حتى يستطيع الزائر أن يلم بكـل جوانبها، كيف يتحدث صحفى عربى عن الغربة وأمامه هذا الفيض الزاخر من المعارف والمباهج والفنون يغترف منهـا مدى الدهر.

ولكنه بعد مرور الأسابيع الأولى وجد أن الأمر يختلـف عما ارتآه فى البداية، وأن يومه الجديد يمكن أن يكون نسخه مكررة من اليوم الذى مضى وأن كل ألوان المتعة وأشـكالها يمكن أن تكون شيئاً رتيباً يمله القلب، وأن لقريته حتى ولـو كانت مجرد بقعة صغيرة على أطراف الصحراء نفوذاً كبيرة على عقلة، إنها تمد حبلاً سرياً يشده إليها ولا يستطيع منـه فكاكاً.

إن هذه المدينة العامرة بالحياة بكل زحمهـا وزحامهـا لا تستطيع أحياناً أن توفر لك صديقاً تبثه الشكوى فى لحظـات

الوجد والحني، حتى وإن التقى الزائر بعدد من أبناء قريتـه، فإن طاحونة الحياة التى تدور بسرعة وعنفوان لا تسمح بلقاء يدوم لأكثر من سويعات معدودة يعود بعدها كل واحد إلـى مشاغله، إلى هموم العمل أو الدراسة أو العلاج التى تغـرب بسببها.

بدأ الفراغ الكبير يطبق عليه، وبدأ الملـل يتسـرب إلـى روحه، حاول أن يطرده بمشاهده برامج الإذاعة المرئيـة أو الذهاب إلى دار العرض السينمائى ولكنها مجرد لحظات ثـم يجد نفسه مرة أخرى مع مشاعر الوحدة والغربـة، ويلتفـت حوله عله يجد أنيساً أو جليساً فلا يلقى سوى جناحه، ولكـن هل يمكن لجناح صغير يـائس أن يعوضـه عـن أحاديـث وجلسات الأهل والأصدقاء الذين تركهم فى القرية؟

ولقد اعترف لجناحه بأنه لم يكن يظن أن لبئر الغنم كـل هذه الجاذبية لقد خرج من هناك ساخطاً متذمراً بعد أن ضاق ذرعاً بهذا الإيقاع البطيء الرتيب الذى تسير عليه القريـة، وكان فى شوق عارم إلى أن يعانق الحياة فى المدينة الكبيرة وفى عاصمة عالمية مثل لندن فكيف تراه الآن يمـل هـذه المدينة ويشتاق إلى تلك الحياة الرتيبة البسيطة الخالية من كل

أوجه المتعة والترفيه، ولكن جناحه كان أكثـر شـوقاً إلـى العودة إلى القرية، فقال مشجعاً صاحبه على الرحيل:

إنك هنا مجرد طائر نكره لا يعرف أهل هذه المدينة لـك فضلاً أو مقاماً، إنك فى "بئر الغنم" أحد كرام الطيور يعرف الجميع مكانتك ويحفظونها لك ويدركون ما فى خصالك مـن نبل وشهامة.

كان "طائر بئر الغنم" مغرماً بالنقاش وقد وجد فـى هـذا الموضوع مجالاً للعودة إلى مطارحاته الفكرية.

ولكنك تعلم جيداً أيها الجناح الطبيب أن الخصال الكريمة، وما تسميه نبلاً وشهامة ليست حانوتاً أو شجرة أو بيتاً تتركه فى قريتك إلى أن تعود إليه،إنها خصال تتبعك أينما ذهبـت، وبمثل ما اهتدى إليها أهالى "بئر الغنم" فإنه يمكن أن يهتـدى إليها كل من تقابله سواء كان ذلك فى لندن أو غيرهـا مـن المدن لأنها أشياء تحملها معك دائماً.

ولقد وجد الجناح بعض المنطق فى كلام سيدة ولكن ثمـة مسألة أخرى أغفلها حديث الطائر.

نعم... نعم... ولكن لماذا لم يهتد أهل هذه المدينة إلى هذه الخصال، ولماذا لم يعرك أحد منهم اهتماماً، لمـاذا تـرفض

صداقتك كل النساء اللاتى حاولت جاهداً التعرف إليهن مـن أجل أن تتعلم اللغة؟

لم يكن "طائر بئر الغنم" يجادل جناحه بعد ذلك، فلقد كان يرغب فى سماع شئ يؤكد هواجسه وظنونه، حقاً أن لنـدن تقدم عالماً جميلاً ورائعاً ولكنه عالم ليس له ... إنها مدينـة عظيمة بأهلها ولأهلها وليس لمن يأتى متسـكعاً مـن بـلاد أخرى لأنه لن يحصد سوى الرفض والغربة والإهمـال، إن الواحد منا لا يستطيع أن يغير أمه لأنها امرأة قروية فقيـرة جاهلة بأم أخرى أكثر علماً أو غنى أو مقاماً ... وهو يحـن إلى "بئر الغنم" ويحبها لأنها هى أمه ... ظل الطائر صـامتاً بينما كان جناحه يهمس قائلاً:

فى حين ترفضك لندن، فإن "بئر الغنم" تفتح لك ذراعيهـا دائماً.

-٩-

وصل طائر "بئر الغنم" إلى باريس ودرجة الحرارة بهـا خمس عشر تحت الصفر!

كان قد أمضى فى قريته عاماً كاملاً منـذ أن عـاد مـن رحلته إلى لندن التى سافر إليها بغرض العلاج، وما أن توفر

له بعض المدخرات حتى وجد جناحه يخاطبه قـائلاً: "إنـى أحسن بالحنين إلى السفر".

من ذا يقاوم شوق الأجنحة إلى الرحيـل؟ قـال الطـائر يخاطب نفسه، ولكنه عاد من لندن وطعم المرارة ما زال فى حلقه، وصار زاهداً بعد تلك الرحلة فى الخروج من قريتـه، فقد أرضى ما كان يملأ قلبه من فضول لرؤية الدنيا وعـاد مقتنعاً بحكمه أسلافه من الطيور الذين كانوا يتغربـون ثـم سرعان ما يعودون إلى أوكارهم ولا يرضون عنها بـديلاً، قال مخاطباً جناحه، يريد أن يثنيه من عزمه على الرحيل.

كفانا ما لاقيناه من تعب فى رحلتنا الأولى.

تلك كانت رحلة للعلاج أما فى هذه فنريد أن نجعلها رحلة للسياحة! لقد تغيرت الدنيا وصار قضاء الإجازة السنوية فى الخارج تقليداً لا تحيد عنه إلا الطيور الجاهلة التى لا تعشـق السفر والمغامرة.

لم أجد فى لندن ما يغرينى بالعودة إليها.

ولماذا لندن؟ قالها الجناح وهو يفتش فى ذهنه عن مدينـة أخرى يمكن أن يطيب لهما فيها المقام، تذكر الجناح أن فـى كل الكتب العربية التى قرأها كان ذكر باريس يأتى مقرونـاً

بالإكبار والإجلال، فهى مدينة النـور والجمـال وعاصـمة العلوم والفنون ومنبع المذاهب والمدارس الفكرية التى تمجد الإنسان، مدينة تحنو على الغرباء وتحتفل بالقـادمين إليهـا وتقدم إليهم خلاصة إنجازات الإنسان فى مختلـف مجـالات الحضارة فكيف يقضـى طـائر مغـرم بالثقافـة والفنـون والمعارف الإنسانية حياته دون أن يرى باريس؟

اقتنع الطائر بمنطق جناحه فوجد نفسه يغادر عشه ويشـد الرحال إلى باريس، لم يكن طائر "بئر الغنم" مغرماً بمشاهدة نشرات الأحوال الجوية ولذلك فقد فوجئ وهو يصـل إلـى باريس بموجة البرد والثلج التى تجتـاح المدينـة، ويغطـى الأبنية والسيارات ويحيل الأشجار إلى تماثيل من الثلج، تمنى لو عاد من حيث أتى ولكن الأوان قد فات ولعله سيجد فـى باريس ما يعوضه عن البرد والآمة، ما إن خرج مـن بـاب المطار حتى ضربته العاصفة الثلجية بألف سوط على وجهة، هرول مذعوراً إلى سيارة الأجرة وقد أحس بالآم الروماتيزم فى عنقه وظهره تستيقظ من جديد.

قال نادماً: "هذا جناه جناحى على وما جنيت علـى أحـد" ولكن جناحه قال مذكراً:

لقد نشأت فى "بئر الغنم" لا ترى ثلجاً ولا جليداً فما ضـر أن تستمتع لأول مرة فى حياتك بهذا المهرجان الذى يصنعه الثلج؟

نعم، نعم، ها هو يمر بالبحيرات والنوافير وأحواض الماء التى جمدها الصقيع، والأرض وقد صارت ضـفافاً ناصـعة البياض، إنه مظهر جديد وفريد يراه لأول مرة ولكنه مـا إن وصل إلى الفندق حتى اكتشف أن عليه أن يبقى سجيناً مـع جناحه فى الفندق لا يستطيع أن يغادره لحظـة واحـدة وإلا لتجمد هو أيضاً من البرد، ولم يستطع أن يتجول فى متـاجر الشانزليه التى يتحدث بجمالها الطير، ولا أن يصعد هضـبة الـ "مون مارتر" التى ظلت على مدى العصور كعبة للفنانين من كل بلاد الدنيا، ولم يستمتع برحلة طالماً تشوق قلبه إليها فوق مياه نهر السنين، ولم يقف فوق برج إيفل ويطـل مـن قمته العالية على مدينة باريس، ولم يذهب إلى متحف اللوفر أعظم مخزن فى الدنيا للوحات وتماثيل الفنانين ولـم يـزر المتحف الحربى ويقف على قبر نابوليون، ولـم يسـتطع أن يسافر إلى فرساى ليتأمل غرفة نوم مارى أنطوانيـت، ولـم يجد فرصة لمشاهدة برامج الليدو ويستمع إلى داليدا وأيـف

مونتان، ولم يشبع فضوله الثقـافى بالـذهاب إلـى المكتبـة الوطنية أو مركز بومبيدو أو دار الشـعر الفرنسـية، ولـم يستطيع أن يشاهد العروض الفنية ومعارض الرسم التى تقام فى الهواء الطلق فى حدائق بولونيا.

وجد طائر "بئر الغنم" نفسه محاصراً فى فندقه يصـرف نقوده بلا طائل، ويعاتب جناحه بلا جدوى وليس من حولـه شئ يمضى فى الفراغ سوى مطالعـة الصـحف ومشـاهدة الإذاعة المرئية.

كانت أخبار الضحايا الذين ماتوا بسبب موجة البرد تحتل عناوين الصحف الرئيسية وتتصدر نشرات الأخبار، أغلـب الذين ماتوا كانوا من بين الصعاليك والمتشـردين الـذين لا يجدون مأوى يأوون إليه، أو العجائز والشيوخ الذين مـاتوا فى بيوتهم التى دخلت من التدفئة، ظل يطرح التساؤلات مع جناحه عن هذا الشتاء الذى داهم البلاد فإذا به يكشف الثقوب الكثيرة التى تملأ الثوب الحضارى الديموقراطى الذى يزهون به علينا والذى أنجز التأمينات الاجتماعية والعلاج المجـانى ووفر فرص العمل والغذاء والمأوى والكسـاء لكـل أفـراد المجتمع وسد حاجات الإنسان، كيف يظهر الآن مهلهلاً بائداً

فى ظل مأساة أكثر من ١٥٠ إنساناً لاقوا حتفهم نتيجة البرد، ألا يدل هذا على أن شيئاً ما صار ينضب ويجف ويضمحل فى الروح التى تحكم علاقات الناس فى هذه البلاد؟ ولكن جناحه كان دائماً يبحث عن الجانب الوضيء، وإذا كانت باريس السياسة والحكم قد أصابها العطب فإن هناك باريس أخرى، باريس السوربون وتقاليده العلمية العريقة وانجازاته فى مجالات العلم والمعرفة، وهناك الكوميدى فرانشيز والتراث المسرحى العريق، وهناك اللوموند فى ما تمثله من حرية القول والتعبير، وهناك هاشيت وغاليمار وغيرهما من دور النشر التى تقدم إنجازات العقل والفكر والخيال، وهناك مجمع الخالدين عنواناً على الاحتفال بالمبدعين وأرباب القلم، وهناك المعارض والمتاحف والجمعيات العلمية التى تمنح أكثر من ألف جائزة كل عام للمبدعين فى مجالات الفن والأدب والفكر والثقافة والصناعة، واعترافاً من المجتمع الدولى بمكانة باريس فى مجالات العلوم والفنون فقد جعلها مركزاً للهيئة الثقافية التى تضم فى عضويتها كل شعوب العالم "اليونيسكو".

في الحقيقة كان كلام الجناح مليئاً بالحب لمدينة بـاريس مما جعل الطائر يزداد شوقاً لاستجلاء مظاهر هذه المدينـة العظيمة ولذلك فقد قرر بـرغم البـرد والثلـوج أن يغـامر بالخروج من الفندق ليطوف عبر ميادينها وشوارعها ويتأمل أبنيتها ومتاجرها،وما إن مشى بضع خطوات حتى وجد كتابه عريضة فوق أحد الجدران شدة إليها أنها موجهة إلى العرب، أسعده أن يجد العرب محل احتفاء واهتمام مـن الباريسـين حتى أصبحوا موضوعاً يتباهى الناس بكتابته على الحائط ولا غرو في ذلك، فالعمال العرب إسهامهم في إشادة هذه الأبنية وشق هذه الطرق وحفر هذه الإنفاق ولا يزالـون يقومـون بأشق الأعمال نيابة عن الفرنسيين، وتابع قراءة الكلمات التي كانت تقول: "أيها العرب، جهزوا حقائب السفر، أو جهـزوا توابيت الموت".

عاد مرعوباً يملأ قلبه الفزع والخوف إلى الفندق يحتمـى بغرفته وينتظر ببالغ الصبر موعد عودته إلى "بئر الغنم" فقد اكتشف أن موجة العنصرية ضد العرب أشد وقعاً وألماً مـن موجة البرد، وإذا كان لموجة البرد أمد محـدود لشـهر أو شهرين فإن موجة العنصرية التي تجتاح باريس لا أمد لهـا

ولا أجل، فقد بدأت منذ أعوام، وفى كل عام يسقط عدد مـن الضحايا العرب على أيديها وهى تزداد شراسة واستفحالاً كل يوم.

"جهزوا أيها العرب حقائب السـفر أو جهـزوا توابيـت الموت" هل هذه هى تجليات العلوم الفنون وانعكاساتها؟ وهل تسرب العطب الذى لحق بالمؤسسات السياسية إلى مؤسسات ومجالات أخرى؟ وهل هذه هى حضارة باريس التى تحنـو على الغرباء وتحتفل بالضيوف؟

لا يهم طائر "بئر الغنم" أن يبحث عـن حـل للمشـاكل الفرنسية،كل ما يهمه الآن هو أن يعد حقيبـة السـفر، وأن يحجز معقدة فى الطائرة، وأن يغادر مدينة النـور والجمـال بأسرع ما يستطيع.

-١٠-

ما إن انحسرت موجة الثلج والبرد حتى وجد نفسه يطيـر إلى الحى اللاتينى، فهذا هو حى الغرباء والأجانب، هنا تسمع كل لغات العالم وتلتقى بمختلف الجنسـيات طلبـه وسـواح ومهاجرون وأعداد كبيرة من الموسيقيين والرسامين يعزفون ويرسمون على قارعة الطريق، وها هو طائر "بئر الغنم" قد

تشبع عقله وخياله بتلـك الروايـات والأغـانى والأشـعار واللوحات التى تصور الحياة فى هذا الحى العريـق وطـال شوقه للتعرف على مظاهر الحياة فيه، هذه إذن هى المقاهى التى عرفت جان كوكتو وأرنست هيمنغـواى وجـان بـول سارتر وجيمس جويس وايزرا باونـد وغيرهم،كتـاب مـن مختلف الجنسيات يؤسسون الحركـات الأدبيـة، ويثيـرون القضايا الفلسفية وينشئون مدارس وتيارات جديدة فـى الأدب والفن.

هذا إذن هو الحى الذى يمثل دائماً مكاناً مميزاً فى أعمال الكتاب العرب الذين عاشوا ودرسوا فى باريس وصوروا من خلال حياتهم فى هذا الحى تجربة اللقاء بين الشرق والغرب، حقاً لقد انطفأ ذلك الوهج الثقافى عن الحى اللاتينى، ولم تعد منتدياته تشهد تلك الحلقات الأدبية التى تتحدث عنها الكتـب أيام الازدهار الثقافى،ولم تعد هناك شخصيات أدبية لامعـة تجعل من مقاهى الحى اللاتينى مكانـاً لاسـتقبال التلاميـذ والاتباع كما كان يحدث فى العقود الغابرة، ومع ذلـك فـإن الحى اللاتينى ظل يحتفظ بشخصـيته المتميـزة وبطبيعتـه الكوزموبوليتيه وبعفوية اللقاء بين الناس حيث كـل غريـب

للغريب قريب، وما زالت الاهتمامات الفكرية والثقافية هـى الغالبة فى أحاديث رواده وقاطنيـة،وكلما قـرأ اسـم أحـد الشوارع أو عنوان أحد المسارح أو المقاهى كانت تسـتيقظ فى ذهنه مشاهد من تلك الروايات والتمثيليات التى قرأها منذ أعوام الصبا وجعلت قلبه يشب شوقاً وحنياً إلى هذا الحى، ها هو يصافح بعينه أسماء هذه الشوارع المحفورة فى ذاكرتـه، هذا هو شارع السان ميشال وهذا شارع السان جيرمان وهذا ميدان السان أندرية بيزار وهذه حديقة لوكسمبورغ أهم معالم هذه المنطقة الباريسية التى تعبـق بعبـر التـاريخ والفـن والفلسفة.

هذه إذن دار عرض الأوديون التى كانت محجـاً لبطـل رواية "عصفور من الشرق" ها هى ما تـزال تجلـس فـى شباكها تقطع التذاكر لرواد الدار، إنها لا زالت تحتفظ بتلـك الملامح ذات الشفافية والشاعرية التى اجتـذبت إليهـا ذلـك الطالب العربى الذى جاء إلى باريس فى مطلع العشـرينات إنها بذاتها سوزى ديبون التى أسكنها الكاتب العربى قصـراً من قصور ألف ليلة وليلة وجعلها تنظر مـن عليائهـا إلـى

مواكب البشر المتدفقة تحت شباكها، اقترب منها وقد أحسب بقوة غريبة تدفعه إلى أن يتأمل السحر القادم من عينيها.

"مساء الخير يا آنسة سوزى"... نظرت إليه باستغراب ما الذى أدهشها فى السؤال إنه ليس إلا عصـفور آخـر مـن الشرق أراد أن يجدد معها اللقاء ويوقظ ذكريات الحب القديم ويعيد إلى الحياة ذلك الواقع الذى صوره الكاتب العربى منذ ٦٠ عاماً مضت، كانت فى ذهنه أشياء كثيرة يريد أن يقولها لسوزى ديبون عن الحياة التى تعبث بعواطفنـا وأحاسيسـنا والزمن الذى يقهرنا دون أن نفكر نحن فى أن نقهره، ولكـن النظرة التى رمته بها جعلته يتوقف عن إظهـار المشـاعر والانفعالات التى تملأ صدره لا شك أنها ما تزال أسيرة لتلك العلاقة الآثمة التى تربطها بـالعجوز هنـرى صـاحب دار العرض التى تعمل بها، لقد أغضبته الطريقة التى اسـتقبلته بها وقال ينقل احتجاجه إلى جناحه.

لم أكن أتصور أن سوزى ديبون يمكن أن تستقبلنى بهـذه الطريقة الجافة!

حاول جناحه أن يقنعه بأن هذه الفتاة التى تعمل فى شباك التذاكر لا تعرف شيئاً عن سوزى ديبون فهـى بالتأكيـد لا

تعرف شيئاً عن سوزى ديبون فهى بالتأكيد لم تقـرأ القصـة العربية ولا تدرك أن كاتباً عربياً منح هذا الاسم للعاملة التى كانت تجلس فى مقعدها منذ ٦٠ عاماً مضت ولكن الطـائر أفهم جناحه بأن الشخصيات فى الفن لا تذبل ولا تشـيخ ولا تموت حتى لو مرت عليها آلاف الأعوام، إنها تبقـى حيـث وضعها كاتبها وعلينا أن نتعامل معهـا دائمـاً علـى هـذا الأساس، لذلك فإن هذه الفتاة التى تجلس الآن فـى الشـباك ليست إلا سوزى ديبون بطلة "عصفور من الشرق" شـئت أم أبيت.

غادر دار الأوديون وهو يحس بالخيبة والأسـى، طـاف قليلاً عبر حديقة لوكسمبورغ حيث يلتقى عشاق هذا الحـى، فقريباً من هذه الحديقة قابل بطل قصـة "الحـى اللاتينـى" صديقته التى بللت جفاف غربته جانين مونترون تلك الفتـاة التى قدمت من منطقة الألزاس لتدرس الصحافة فى بـاريس ما أعظمها من عاشقة تعرف طريقها وتعى معنى التضـحية فى سبيل حبها، وترتفع فوق عذابها وجراحاتها، ما أروعهـا وهى ترسل برقيتها المؤثرة إلى حبيبها عندما تخلى عنها فى محنتها قائلة له:

سأواجه مصيرى بشجاعة.

كم هزته هذه العبارة عندما قرأ الرواية لأول مـرة، إنـه يحس اليوم بان معانى الشهامة والوفاء تقتضيه بـأن يبحـث عنها وينصفها من الزمن الذى غدر بها فيعوض لها سنوات الحزن والمحنة التى عاشها، لا تبكى ولا تحزنى أيتها الفتـاة الألزاسية النبيلة، سوف أمنحك حباً صادقاً وفياً ينسيك غـدر ذلك الصديق، رأى فتاة تتأبط كتابها وتعبر الحديقة مسرعة، ذهب وراءها منادياً.

آنسة جانين، آنسة جانين.

أمسك به جناحه صائحاً:

"هل جننت" لم يستطع اللحاق بها فقـد غـادرت جـانين الحديقة وضاعت فرصته على أن يتعرف بها ويعقد صـداقة معها.

كيف يريده هذا الجناح أن يزور بـاريس دون أن يلتقـى بهذه الشخصيات التى أحبها وأحـب بـاريس مـن خلالهـا وتعاطف مع لحظات حزنها وسعادتها؟

لماذا يريد أن يحرمه هذا النجاح من متعة الالتقاء بهؤلاء الأحبة؟

لكن الجناح قال مذكراً.

إذا أردت أن تبحث عن "جانين الحى اللاتينى" فيمكنك أن تبحث عنها بين تلكم العجائز اللاتى يقمن تحت الأقواس فـى أحضان زجاجات الخمر الرخيصة، فعمرها الآن قد جـاوز الستين، ولكنه لا يتصور أن جانين، تلك الفتاة الذكيـة التـى تمتلئ طموحاً ورغبة فى تغيير الدنيا، يمكن لها أن تنتهى إلى هذا المصير، حقاً لقد سقطت فى آخر القصة ولكن سـقوطها نفسه كان سقوطاً نبيلاً كانت أكبر من صاحبها فى كبريائـه الزائف.

إن عليه أن يعترف بأن الحى اللاتينى الـذى يـراه الآن يختلف عن الحى اللاتينى الـذى قـرأ عنـه فـى الكتـب والروايات، لقد عبث به الزمان كمـا عبـث بأبطـال تلـك القصص التى عاشت فى خياله، فلينتقل مـن دنيـا الـوهم والخيال إلى أرض الواقع، لينسى القصص التى تتحدث عـن أجيال قديمة ويبحث عن الجيل الجديد الذى تشـغله همـوم وأفكار أخرى لعله يستطيع أن يتعرف على باريس اليوم بدلاً من الاهتمام بباريس الأزمنة الغابرة.

كل الكتاب الذين ذهبوا فى سياحات إلى العواصم العالمية عادوا ينقلوا طابع الحياة فى تلك المدن من خـلال قصـص الحب التى عاشوها والتجارب العاطفية التى مروا بها، فعـن طريق اللقاء بالجنس الآخر تعمقت صـلتهم بهـذه البيئـات الغربية واستطاعوا سبر أغوارها والنفاذ إلى أعماقها وتقـديم صورة حقيقية عن طبيعة مجتمعاتها، ولقد قرأ طـائر "بئـر الغنم" هذه القصص والروايات فامتلأ وجدانه بالأحزان التـى ساقتها والمشاعر والانفعالات التى صورتها، وذهب فى يقينه أن سياحته ستكون ناقصة إذا لم يحقق لنفسه تجربة عاطفيـة ينصهر فيها ويتذوق طعم الحياة فى هذه المدن على حقيقتهـا ويلتقى بإنسانة يبادلها الحب ويتعرف من خلالها على أعماق المجتمع بدلاً من أن يبقى طافياً على السـطح، ينظـر إلـى الحجارة الجامدة والواجهات المضيئة دون أن يدخل إلى عالم المشاعر والأحاسيس ويلتقى بالحياة فى نبضها الحى وإيقاعها الدافق بالحب والحرية، فقد عافت نفسه الذهاب إلى المراقص والأندية الليلية وكرهت ذلك الحب الذى يباع على الأرصـفة فى أحياء "البيغال" و "السان دينيه" ورأى فى ذلك كله شـيئاً

يمس كبرياء الطيور التى عاشـت وتربـت علـى التقاليـد الأخلاقية فى الريف العربى.

فما يبحث عنه ويطمح إليه هو علاقة حب كريمة، بعيـدة عن الرخص والابتذال والتجارة بالعواطف والغرائـز، إنـه مطلب صعب فى عالم صار كل شئ فيـه خاضـعاً للبيـع والشراء ولكن لا بأس من المحاولة وجد فى الفتاة التى تأتى إلى مقهى الفندق لتبيع الورد جمالاً بريئاً وفطرياً يجذبه إليها ورأى فى المهنة التى اختارتها لنفسها شيئاً مجيداً وشـاعرياً ينتسب إلى عصر أكثر بهجة ورومانسية ويرتفع ببائعة الورد عن هذا الابتذال الذى يملأ الأسواق من حوله، فصار يشترى منها وردة كلما رآها حتى أنست إليه وتألفت معـه وبادلتـه الابتسام وجاذبته أطراف الحديث وصار ينتظر موعد قدومها بلهفة وشوق.

ها هى نسمة الحب تأتى لتغمر قلبه وتجعل الانتظار فى هذا المقهى قيمة إنسانية ومعنى، تجرأ ذات يوم ودعاهـا إلى تناول العشاء فى مطعم شرقى، ترددت كثيراً ولكنها عند إلحاحه المتواصل منحته موعداً وفى المساء جاءت إليه وقـد تألقت فى زينتها وتضخمت بالعطر والعبير، تخلت عن ثياب

العمل البسيطة وارتدت فستان السهرة الذى أظهـر جمالهـا ومفاتنها، ها هو الحظ يسوق إليه هذه الصبية الوديعة الرقيقة الناعمة تطفئ حرقة الشوق إلى تجربة عاطفية تملأ بالبهجة حياته وتبلل جفاف غربته، أين طيور "بئر الغنم" تشاهده اليوم وهو يرافق هذه العصفورة؟ ها قد بدأت المدينة الكبيرة تتخلى عن قسوتها فى معاملته، وتمنحه شيئاً من دفئها وتفتح أمامـه أسرارها وتدخله إلى دائرة عطفها وحنانها بعد أن بقى مـدة من الزمن ينتظر أمام أبوابها المغلقة، إنه لـيس إلا طـائراً أنهكه الطيران عبر الزوابـع والأعاصـير جـاء ليسـتريح وينفض عن ريشة غبار السف والترحـال ويعـوض أيامـاً قضاها وحيداً، ها هى صديقته الفرنسية تتألق كالوردة تحـت أضواء هذه المصابيح، أحس بزهو الفاتحين وهو يجد أن اسم الفتاة التى دعاها إلى العشاء هو نفسه اسم المرأة التى عشقها نابليون "جوزفين" لم يجد كلمة أسمى وأنبل وأكثر انسـجاماً مع هذا الموقف من كلمة حب يعبر بها عن هذه الأحاسـيس التى تملأ وجدانه فاستهل حديثه معها على العشاء قائلاً:

اسمحى لى أن أقول إننى أحبك يا جوزفين.

قالها وهو على يقين من أنه لا شيء يسعد قلب المرأة مثل هذه الكلمة ولكن الدهشة الكبيرة وجد الفتاة الفرنسية تنـتفض مذعورة كأنه رمى أمامها قنبلة!

ماذا تقول؟

حدقت به باستغراب وهى تقف غاضبة تهم بـأن تغـادر المطعم، ارتبك طائر "بئر الغنم" فى مقعده خائفـاً مـذعوراً يخشى الفضيحة أمام عمال وزبائن المطعم، لا يملك تفسـيراً لهذا الغضب ولا يعرف الذنب الذى جناه حتى تقف مذعورة كل هذا الذعر، لقد قال الكلمات التى قالها بصـدق وعفوبـة معبراً عن ما حس به نحوها فى هذه اللحظات، فمـا الـذى أغضبها وأثار حنقها وجعلها تنفعل كل هذا الانفعال، ولكـن بائعة الورد الفرنسية أفهمته أنه لا يقول مثل هذا الكـلام إلا من كان عابثاً لا يحترم المرأة التى معه، إنها لم تخرج معـه إلى العشاء هذه الليلية لأنها تحبه أو لأنها تريده أن يحبها لقد كانت دعوة عابرة قبلتها لأنها لا تريد أن تـرفض طلبـه أو تتعالى عليه، ولكنها لا تعنى أن ما بينهما يصل إلى درجـة الحب الذى يحتاج إلى سنوات من المعرفة فكيف استطاع أن يحبها خلال هذه اللحظات القصيرة؟ فهذه كلمة لا يقولهـا إلا

من كان عابثاً ضاحكاً هازئاً بالمرأة التـى أرادت أن تكـون اجتماعية فرافقته إلى العشاء، أنها لا تسمح لأحد بأن يعبـث بمشاعرها أو يسخر من وجودها معه لـذلك فهـى تعتبـر الكلمات التى قالها إهانة لا تغتفر.

أوقع فى يد طائر "بئر الغنم" ولم يدر ماذا يفعل، أن عمراً طويلاً من الحرمان وجبلاً من التقاليد التى تمنع لقاء النسـاء بالرجال جعلاه لا يعرف كيف يتصرف فى لقائـه مـع أول امرأة تقبل دعوته إلى العشاء، فقد أغضبها وأثار حنقها مـن حيث أراد أن يسعدها ويوصل البهجة إلى قلبهـا، ضـاعت فرصته فى أن يحقق لنفسه تواصلاً مع الجنس الآخر فى بلاد الغرب، لقد فتحت هذه المدينة أبوابها أمامه للحظة قصـيرة عابرة وسرعان ما أغلقتها بقوة وقسوة.

عاد إلى فندقه حزيناً مكسور الخاطر يسدل ريشـه فـوق الجراح العميقة التى أصابته هذه الليلة وقد أحس بأن الإقامة فى هذه المدينة صارت أمراً لا يطاق.

شاهد طائر "بئر الغنم" وهو فى بـاريس ميتـران علـى الشاشة الصغيرة يستقبل السيدة بريجيت باردو استقبالاً رسمياً

فى قصر الإليزية، وقد أسعدته أخبار هذه الزيارة لظنه بأنها تتعلق بإنتاج شريط سينمائى من أشرطة الإغراء والجـنس، تدور أحداثه فى هذا القصر العتيق، يروى قصة مسلية تختلط فيها أسرار الحكم بنداءات الجسد، ولكنه علم بعد ذلـك أن لا علاقة لهذه الزيارة بعمل ممثلة الإغراء الشهيرة وأن ليس فى الأمر قصصاً وأشرطة تمتلئ بمشاهد الإغراء المثيرة كمـا صورها له خياله الواسع، فلقد جاءت الممثلة الكبيرة ترتـدى رداء محتشماً لتتحدث مع رئيس الجمهورية الفرنسـية فـى قضية لا علاقة لها بالتمثيل والأشـرطة السـينمائية، وإنمـا تتصل بجمعية أنشأتها السيدة باردو للـدفاع عـن حيوانـات الفقمة، وما هذه الزيارة إلا جزءاً من حملة تقودهـا لحمايـة هذه الحيوانات البحرية والاعتناء بها ومنـع اصـطيادها أو قتلها أو تركها تتعرض للموت برداً على شـواطئ البحـار والمحيطات.

استغرب طائر "بئر الغنم" أن تترك ممثلة فرنسا الأولـى مشاغلها كنجمة سينمائية وتكرس وقتها لقضية هذه الحيوانات البحرية بحيث تأتى وترغم الرئيس الفرنسى على أن يتـرك القضايا السياسية المتفجرة التى تملأ نهاره وليله، وتلازمـه

بأن يخصص جزءاً من وقته لدراسة حفنة من القمامات فى وقت كان البشر يموتون فيه من جراء الموجة الثلجية التى داهمت بلدان الشمال.

واكتشف طائر "بئر الغنم" أن زيارة هذه الممثلة إلى قصر الإليزيه ليست شيئاً فريداً من نوعه، فجمعيتها ليست إلا واحدة من آلاف الجمعيات والأندية التى تكرس نفسها لقضايا تفصيلية صغيرة خوفاً من أن تضيع فى زحمة القضايا الكبيرة، فبجوار الجمعيات المسخرة لخدمة القضايا الكبيرة والتى تعتنى بحقوق الإنسان أو حماية البيئة، أو تلك التى تنظم المظاهرات الجماهيرية ضد الأسلحة النووية، والأخرى التى تعارض التفرقة العنصرية أو تهتم بحماية الأطفال وحقوق الأرامل والمطلقات وغيرها من جمعيات تدافع عن المستهلكين أو المؤجرين أو المساجين فإن هناك جمعيات تكرس نفسها للدفاع عن نوع من الأشجار أو عشبه من الأعشاب خوفاً عليها من زحف الأبنية والمصانع وأخرى تهتم بنوع من الطيور مثل النسور أو الصقور التى يهددها الانقراض، أو تكرس نفسها لحماية إحدى الحدائق أو الغابات وتسعى لدى السلطات لإصدار القوانين التى تؤمن لها

الحماية، ولكل كاتب ورسام وموسيقى ممن خلفوا تراثاً فـى هذه المجالات جمعية من أنصاره تلتقى حول المحافظ علـى انتاجه، يجمعها الإعجاب بموهبته وتسعى لصون تراثه مـن التلف، وتؤدى واجب الدفاع عن حقوقه والدعايـة للوحاتـه ومؤلفاته الأدبية أو الموسيقية.

جمعيات وأندية تصدر الكتب والنشرات، وتنظم الملتقيات والمنتديات وترفع القضايا فى المحاكم إذا ما رأت شيئاً يهدد الموضوع الذى كرست نفسها للدفاع عنه فقد أصبحت قضية هذا الطائر، أو هذا الحيوان، أو هذه العشبة، أو الشـجرة أو هذا الكاتب المسرحى المغمور هى القضية الأساسـية فـى الكون بالنسبة لأعضاء الجمعية الذين التقوا حول هدف واحد محدد تتضاءل بجواره كل الأهداف والقضايا الأخرى.

قال الطائر يناجى جناحه :

إننى أفهم أن تنشئ مجموعة من الهنود جميعـة لحمايـة البقر باعتبارها حيوانات يقدسها الهنود ولكنى لا أفهم ما الذى تفعله جمعية تنشأ فى باريس لحماية الفيلة، فباريس على حد علمى ليست من تلك البلاد التى يركب أهلها الأفيال؟

قلت جناحه صفحات المجلة التى نشرت تحقيقاً صـحافياً حول هذه الجمعية وقال:

لو قرأت تصريحاتهم لوجدت أن قضية الفيلة التى تواجه خطر الانقراض هى القضية التى يجب أن تتفـرع البشـرية لمعالجتها، قبل أى قضية أخرى، وإلا لصحونا ذات صـباح على عالم قد خلا من الفيلة! ولو أدركت المغزى العميق لهذه القضية لاستغربت كيف طاب لك أن تنام فى عشك فى "بئـر الغنم" دون أن يقلق ضميرك هذا المصـير الرهيـب الـذى تتعرض له الفيلة ولعلمت أن السـكوت علـى قضـية هـذا الحيوان النبيل الذى عرف بسمو أخلاقه وقوة احتماله لـيس إلا دليلاً على جحود الإنسان وعقوقـه ونكرانـه للجميـل، ولامتنعت عن الشراب والطعام حتى تلقى هذه المشكلة حـلاً ولتذكرت مدى الخدمات التى قدمها هذا الحيوان للبشرية قبل اختراع السيارات والقطارات فهل يرضيك أن تزور حديقـة للحيوان دون أن تلتقى بهذا الصديق العظيم للإنسان من كفك، وهو يعبر عن شكره وامتنانه؟ هل عرفت الآن لمـاذا تنشـا الجمعيات التى تدافع عنه وتطالب بالمحافظة عليه، وتـنظم

البعثات التى تسافر إلى غابـات أفريقيـا وأحـراش آسـيا لمواصلة الحملة ضد أعداء الفيلة؟

كان حديث جناحه من الحماس بحيث جعل طـائر "بئـر الغنم" يحس بالألم للمصير الذى يتعرض له هـذا الحيـوان النبيل، وتمنى لو أن إقامته امتدت فى باريس حتى يسـتطيع أن يصبح عضواً فى هذه الجمعية ولكنه قال مستدركا:

لماذا لا نؤسس فرعاً لهذه الجمعية فى "بئر الغنم"...؟

ولكن لو أنشأنا جمعية فى "بئر الغنم" لحماية الفيلة فمـاذا نفعل حول قضية طائر من كرام الطيور هو "الصقر" والذى يتعرض هو الآخر للهلاك والانقراض؟ وماذا نفعـل بشـأن حيوان جميل جعله الشعراء مضرباً للأمثال فى جمال العيون وسماحة طبعه هو الغزال؟ وماذا نفعل بشان الثعالـب التـى يصطادونها ويصنعون منها الفراء للسيدات؟ وماذا نفعل فـى المحنة التى تتعرض لها الفئـران عنـدما يجعلونهـا حقـلاً للتجارب الطبية؟ فهذه كلها صارت قضايا وهموماً تتألف من أجللها الأندية والجمعيات، ثم ماذا عن عشرات الأنواع مـن الأشجار والزهور والأعشاب التى قدمت ثمارها وعطرهـا ورحيقها الشافى للناس ثم صارت مهددة بالاختفاء فجاء أهل

هذه البلاد ينشون جمعيات للدفاع عنها؟ وماذا نفعـل بشـأن عشرات الشعراء والكتاب العرب الذين يغمرهم الآن غبـار النسيان؟ ثم ماذا نفعل بشأن قضية جديرة الاهتمام هى قضية "شرلوك هولمز".

ماذا بشأن شرلوك هولمز؟

ها هى الصحيفة تنشر حديثاً أخر عن جمعيات تنتشر الآن للاهتمام بتراث هذا الشرطى الذى يملك عبقرية فى اكتشاف الجريمة.

لقد أربكنى حديثك! فها قد رضينا بأن نرى جمعيات تهـتم بالكتاب والموسيقيين والرسامين ولكن كيف تريدنى أن أفهـم أغراض جمعية تقوم لحماية حقوق شخصية خيالية لم يكـن لها وجود إلا فى خيال الكاتب؟

ليس شرلوك هولمز إلا واحداً من عشرات الشخصـيات الخيالية التى اجتمع على حبها الناس، مثل رونبسون كروزو وروبن هود وغيرهما، فهـؤلاء أنـاس جمعهـم الإعجـاب بشرطى التحريات الخاصة وموهبتـه فـى علـم الفراسـة وأخلاقيات المهنة التى يتحلى بها، فأنشئوا جمعيات يتبادلون من خلالها قصصه وينشرون البحوث حول منهجه فى كشف

الجريمة ويصححون أى تحريف تلحقه الأشرطة والتمثيـات فى شخصيته، ويطالبون بأن ترتفع أخلاقيات المهنـة إلـى مستوى أخلاقيات هذا الشرطى الذى اخترعه السـير آرثـر كونانودويل.

يا له من شرطى سعيد الحظ، ولكن ألا تعتقد معـى أيهـا الجناح المبجل أن الأمر قد زاد عن حده، وأن هذه الجمعيات التى يتفننون فى إنشائها لكى لا تضيع القضايا الصغيرة فـى زحمة القضايا الكبيرة قد قلبت الآية وجعلت القضايا الكبيـرة هى التى تضيع فى زحمة الاهتمامات الصغيرة؟

وافق الجناح وهو يقفل مجلته:

نعم، نعم ولهذا فإننا فى الوطن العربى أفضل حالاً من كل هؤلاء، إننا لا نؤمن بدوشة الدماغ ولا ننشئ جمعيات للقضايا الصغيرة ولا الكبيرة، فما أعظم أن نترك الخلق للخالق وتنام مرتاحاً هانى البال.

-١٣-

كان الفضول قد استبد به للالتقاء بأعضاء هذه الجمعيـات التى تتبنى القضايا الهامشية الصغيرة التى لا تصنع العناوين الكبيرة فى الصحف والإذاعات، فقد وجد طائر "بئر الغـنم"

فى الأمر شيئاً مثيراً يستحق الاهتمام والمتابعة والتعرف من قريب على أعمالهم وأسلوب تفكيرهم وأن لا يكتفى بما يقرأه عن نشاطاتهم فى النشرات والدوريات، أخبره عامل الفنـدق أنهم يقفون كل يوم أحد أمام المتـاحف والمكتبـات العامـة ويجمعون التوقيعات ويملئون بها عرائض الاحتجـاج التـى يقدمونها للحكومات والسلطات المحلية.

ذهب إلى حيث يجتمعون، وأمام مركز بومبيدو الثقـافى وجد عشرات الشبان والفتيات من أعضاء هـذه الجمعيـات اقترب من فتاة رآها تجمع التوقعات، سألها عن الجمعية التى تنتمى إليها فقالت: إنها جميعة تطالـب السـلطات بالسـماح للأمهات بإرضاع أطفالهن فى المكتبات العامة

بدأ الأمر غامضاً على إدراك طائر "بئر الغنم" ولقد رأت الفتاة فى وجهة ما يوحى بذلك، فاستغربت أن تلتقى بإنسـان لا يعرف شيئاً عن جمعيتها وعن تاريخ نضالها الطويل مـن أجل الأمومة المعذبة فى المكتبات العامة، ولكنها عندما رأت أنها تخاطب طائراً غريباً فى هذه المدينة صبرت على جهلة وقررت أخذه على قدر عقله وتطوعت بشرح الأمر وتبسيطه له.

إنك، بلا شك تعلم أن قانوناً قد صدر فى القرن الماضـى يمنع تناول الطعام والشراب داخل المكتبات العامة.

تظاهر طائر "بئر الغنم" بأنه على علم بهذا القانون الـذى جاء منسجماً مع طبيعة الأشياء ليفرض النظام والهدوء داخل المكتبات العامة.

استطرد الفتاة الثائرة فى شرح الموضوع:

لقد غاب عن هذا المشـروع الـذى وضـع القـانون أن الأمهات لا يرضين بترك أطفالهن الرضع فى الشـارع وأن هذا الرضيع الذى يأتى مع أمه لا يستطيع أن يدرك الحكمـة من تطبيق هذا القانون فهو يبكى ويصرخ مطالباً بحقه فـى الغذاء.

لم يفهم طائر "بئر الغنم" العلاقة بين القانون وبـين هـذا الطفل الرضيع، فلتنفصل أمه بإرضاعه، فهذا بالتأكيد أكثـر جدوى من تركه يملأ جو المكتبة بالبكاء.

المشكلة، أيها السيد أن المشرع لم يضع مادة فى القـانون يستثنى بها الأطفال الرضع ويعترف بحقهم فى تناول طعامهم من صدور أمهاتهم داخل المكتبة، أليس هـذا حكمـاً علـى الأمهات بالامتناع عن المجـيء إلـى المكتبـات العامـة،

ومصادرة لحقهن بالمعرفة والإطلاع؟ لقد أخذت جمعيتنا على عاتقها أن ترفع هذا الظلم الذى يقع على الأمهات وأطفـالهن والمطالبة بإصدار قانون جديد يمنح للأطفال حق الرضـاعة داخل المكتبة وقد استطعنا بعد عشر سنوات من النضـال أن نجمع حولنا أنصاراً ومؤيدين وسوف يتحقق لقضيتنا الفـوز فى أقرب الأوقات.

أخذ طائر "بئر الغنم" القلم ووضع توقيعـه إلـى جانـب التوقيعات التى امتلأت بها العريضة والتى تطمح أن تصـل إلى يوم تمتلئ فيه المكتبات بالنهود العارية ترضع الأطفال، وذهب إلى حلقة أخرى وفتاة أخـرى تجمـع هـى أيضـاً التوقيعات، عرف من النقاش الدائر أن الأمر يتصل بشـرط سينمائى جديد يقوم ببطولته روبرت دونيرو، بعنوان "الوقوع فى الحب" ولأنه يعرف أن لهذا الممثل فيلمـاً قـديماً تـدور أحداثه حول القضية الفلسطينية حيث جاء الشـريط معاديـاً للقضية العربية ومليئاً بالدعاية الصهيونية فقد قرر فـوراً أن يمنح هذه الفتاة توقيعه، لكنه أراد أن يرضى فضوله لمعرفة الأمر، فلعل هذا الممثل جاء فى شريطه الجديد يعادى قضية أخرى من قضايا الحرية سألته الفتاة التى تجمع التوقيعـات،

هل شاهدت الشريط؟ لم يكن قد شاهده واعترف للفتاة بجهله .

إننا نستنكر المعاملة الوحشية التى يعاملون بها الدجاجة داخل هذا الفيلم.

إذن فالأمر يتعلق بجمعية جديدة أنشئت للدفاع عن هذه الدجاجة!!

إنها ليست جمعية واحدة، لقد أنشأنا جمعيات فى كل الأحياء والقرى داخل البلدان التى تعرض هذا الفيلم، فلم تتوصل جهودنا إلى منع عرضه أو إزالة المشهد الذى يعذبون فيه الدجاجة بهذه القسوة، وسوف يدفعون الثمن غالياً.

منع ابتسامة ساخرة من أن تأخذ طريقها إلى وجهة، ما ذنب فتاة لا تعلم الهموم التى يحملها طائر عربى على ظهره؟ بأى حق يسخر من حماسها واكتئابها؟ لا شك أن قلباً نبيلاً هو الذى دفعها إلى أن تأخذ مسألة تعذيب الدجاجة مأخذاً جدياً، فتضحى بيوم عطلتها وتقف وسط هذا الطريق تتحمل عناء هذا البرد الشديد تبحث عن أنصار لقضيتها؟ لم يستطيع كطائر عربى إلا أن يرى فى الأمر شيئاً من العبث

وهو القادم من بلاد يتعرض أهلها للمجازر كل يوم ويتلقى أطفالها الغازات الوحشية صباح مساء، ولا يرى من حوله رأياً عاماً دولياً يثور وينتفض لهذه المجازر والغارات والحملات العسكرية، ولكن لماذا يريد أن يحمل هذه الصغيرة جرائم كل أجهزة الإعلام التى تقف موقفاً معادياً من قضيته ومؤامرات الحكومات التى تتواطأ مع الصهاينة ولا تقدم الحقيقة لشعبها؟

راقبها وهى تتحدث بحرقة حقيقية عن هذا المشهد الذى هز كيانها.

إنه سبه فى وجه الإنسانية تصور ذلك الحيوان المسكين البائس الضعيف، الدجاجة التى لا تملك مخالب ولا براثن ولا أنياب يعبثون بها ويعذبونها ويجربون بها الصدمة الكهربائية حقاً إن الدجاجة لم تمت، ولكن ألا يدل على القسوة التى تملأ قلب الإنسان؟

تنفس الصعداء وشكر أمامها السماء لأن الدجاجة لم تمت.

إنه شريط يتحدث عن الحب ولكنه مليء بـروح العـداء والكراهية هل تريد أن تضع توقيعك تضامناً معنا ضد أعداء الدجاج؟

وضع توقيعه على الورقة ومضى يلعن فى سره أعـداء الدجاج وأعداء الإنسان ...

-١٤-

كان، وهو يلتقى بهؤلاء الفتيات والفتيان الذين يـدافعون بحرقة وحماس عن قضايا هاشمية صغيرة، يحاول أن يتأمل هذه الظاهرة فيبحث لها عن تفسير، لا شـك أن أحـد أهـم الأعراض الجانبية التى أنتجها المجتمع الصناعى الاستهلاكى بتطوره المدهش، هو هذا الشعور بالوحدة الذى يعانى منـه الناس، ففى زحام هذه المدن الكبيرة، وفى السباق من أجـل تأمين الحياة، ومحاولة كل إنسان أن ينسجم مع هذا الإيقـاع السريع للحياة الذى صار أشبه بالهستيريا،كثيراً ما تضـعف حلقات التواصل الإنسانى ويجد الفرد نفسه عرضـه لأمـر الوحدة والعزلة والاكتئاب.

إنه يذكر إحدى المناسبات عندما تجلت أمامه هذه الحالة بقوة ووضوح خاصة مع النساء والرجال المتقاعدين والذين يعيشون بمفردهم.

كان ذلك عندما أقام طائر "بئر الغنم" في لندن بضعة أشهر بعرض العلاج، إذ إنه ما أن وضع أمتعته فى الغرفة التى اكتراها حتى وجد إحدى العجائز تطرق بابه.

خير إن شاء ا ؟

الحديقة.

لم يكن يعلم عن أى حديقة تتكلم، ولكنه أدرك فيما بعد أنها تعنى هذه الأمتار القليلة من الخضرة التى تقع أمام العمارة.

ما بها؟

"نريد أن نرفع عريضة للحكومة من أجل السماح لنا بوضع سور حولها".

ومضت تشرح له فائدة هذا السور الذى يوفر الحماية للحديقة، والنفع العظيم الذى سيعود على القاطنين فى هذا الميدان عندما يصبح استعمال هذه الحديقة مقتصراً عليهم، وليس كما هو الحال الآن.

وضع إمضاءه بسرعة على العريضة، وهو يستغرب لهذه المرأة العجوز التى تتعب حالاً من أجل حديقة وهمية تحتاج إلى ميكروسكوب لكى تراها، ولم تمض سوى بضـعة أيـام حتى عادت إليه بوجه يطفح بالفرحة والسعادة، سـألها عـن الأمر فقالت مرة أخرى:

الحديقة.

ما لها هذه المرة؟

لقد تمت الموافقة على بناء السور.

ومضت تشرح الجهود التى بذلتها، وأعضـاء المجلـس البلدى الذى التقت بهم، والمعارضة التى واجهتها، ثم الفـوز الذى حققته فى آخر الأمر.

شكر لها جهودها وأراد أن يقفل الباب، لكنها أخبرته بأنها الآن فى سبيل جمع التبرعات لبناء السور، منحهـا بعـض النقود راجياً أن يكون الأمر قد انتهى عند هذا الحد، ولكن فى اليوم التالى جاء من يطرق بابه، وجده عجوزاً إنكليزياً مـن جيرانه.

الحديقة.

ما بها.

نريد أن نضع بها بعض المقاعد الخشبية لاستراحة القاطنين.

لا حول ولا قوة إلا با إنها لا تسع مقعداً واحداً فهى ليست حديقة وإنما جزيرة دوران صغيرة مهمتها منع السيارات من التصادم فكيف أصبحت منتزها يبحثون له عن المقاعد والأسوار.

حاول الرجل العجوز أن يسترسل فى شرح فائدة هذه المقاعد إلا أنه أعطاه بضعة قروش وتركه يذهب، ويمضى يوم أو يومان ويأتى من يطرق بابه مرة أخرى، وصار ما إن يرى الطارق حتى يدرك منذ اللحظة الأولى أنها الحديقة قال يخاطب المرأة التى وقفت أمامه.

ماذا تريد الحديقة هذه المرة؟

أرجوحة للأطفال، تصور أن الأطفال يحتاجون إلى الرحيل مسافات طويلة من أجل العثور على أرجوحة، إنها مسألة غير عادلة فى حق هؤلاء الأطفال وقد آن أن نفعل شيئاً.

وقبل أن تكمل كلامها وضع فى يدها بعض القروش وأقفل الباب، ليت الأمر ينتهى عند هذا الحد لكنه لا ينتهى

فهو على يقين من أن طارقا آخر سوف يأتى وموضوعاً آخر بشأن الحديقة سوف يثار ولم يطل انتظاره.

نريد تزويد الحديقة بحنفية المياه فشجيرات الورد صارت تذبل بسبب هذا الصيف القائظ.

ولكن طائر "بئر الغنم" مجرد عابر سبيل لا يهمه أى شيء من أمر هذه الحديقة الوهمية التى لا وجود لها إلا فى خيـال هؤلاء العجائز، إنه لم يسـتفد مـن مراجيحهـا ومقاعـدها وأشجارها فلماذا يصرون على إزعاجه كـل يـوم، أراد أن يمنح الطارق بعض النقود ينهى بها النقاش ولكنه أخبـره أن جمع النقود مرحلة أخرى، فالمطلوب الآن هو توقيعه علـى عريضة تطالب البلدية بالموافقة على مد المياه إلى الحديقـة، ليته طلب النقود وانتهى الأمر، ولكن الأمر لا ينتهـى فبعـد السماح بمد المياه سيأتى موضوع النفقات وبعدها سوف يأتى أمر العامل الذى يجب أن يأتى ساعة أو ساعتين فى الأسبوع إلى الحديقة للاعتناء بها، لقد أقاموا السـور الآن وهـا هـم يوزعون مفاتيح الحديقة علـى القـاطنين ويحـددون رسـم الاشتراك لكل قاطن،ثم تأتى قضايا أخرى، هـل يسـمحون للقاطنين باصطحاب كلابهم إلى الحديقـة أم لا؟ وإذا وافقـوا

فهل يسمحون لهم بإطلاقها فى الحديقة أم يشترطون علـيهم قيادتها لكى لا تعيث فساداً فى الحديقـة؟ ثـم سـيأتى أمـر الاجتماع العام لانتخاب لجنة للإشراف على الحديقة.

عشرات القضايا التى يتفنن هؤلاء العجائز فى إثارتها وما أن تنتهى قضية حتى يفتشون عن قضية أخرى.

أدرك طائر "بئر الغنم" من خلال مطارحاته الفكرية مـع جناحه أن الأمر ليس أمر هذه الحديقة الصغيرة البائسة وإنما هو أمر هذه الوحدة القاسية التى يحس بها هـؤلاء الشـيوخ والعجائز المتقاعدون.

ليست الحديقة سوى ذريعة تتيح لهم فرصة التواصل مـع الناس وتمنح يومهم قليلاً من الإثارة ترطب جفاف العلاقـات من حولهم،إن هذا الرجل المتقاعد أو هذه المرأة العجوز قد يبقيان فى غرفتيهما إلى آخر العمـر دون أن يجـدا أحـداً يتحدثان إليه، فالحديقة صارت هو وسـيلة هـؤلاء النـاس لتحقيق حاجتهم للتواصل الإنسانى والخـروج مـن العزلـة ومعالجة كابوس الوحدة الذى يجثم علـى قلـوبهم، إن هـذه المسافة التافهة الضئيلة من الأرض ليست حديقـة ولكـنهم اخترعوا منها حديقة، وتفننوا فى خلق احتياجات لها وإثـارة

المشاكل حولها من أجل أن تتاح لهم فرصة للتخاطب مع جيرانهم وتمنحهم قضية يحسون أنهم يدافعون عنها، ولو لم تكن هناك هذه المسافة من الأرض لوجدوا ذريعة أخرى وقضية أخرى يخترعونها اختراعاً ويستطيعون بواسطتها كسر هذا الطوق من العزلة التى يعيشون داخلها، قد يكون لهذه المرأة العجوز أولاد وبنات وقد يكون لها أخوة وأخوات ولكن الظروف وطبيعة المجتمع وضغوط الحياة العصرية وطاحونة العمل وتأمين الرزق والفلسفة التى تحكم العلاقات فى مجتمع صناعى استهلاكى جعل كل إنسان يعدو فى طريقه دون أن يلتفت شمالاً أو يميناً حتى لأقرب الناس إليه، ولهذا فإن هذه المرأة العجوز تعيش هنا بمفردها وتخترع حديقة وهمية تتيح لها فرصة أن تطرق أبواب جيرانها تهيب بهم للعمل من أجل إنقاذ الحديقة.

ولكن ما ذنب طائر "بئر الغنم".

-١٥-

كان أغرب ما لاحظه طائر "بئر الغنم" وهو يزور العواصم الغربية هذه الصورة التى يقدمونها عن المواطن العربى فى برامجهم وتمثيلياتهم المرئية، وإذا كانت أغلب

التمثيليات تتناول قضية الصراع بين الخير والشر، فقد اهتدوا إلى إنسان يمكن أن يلصقوا به كل أدوار الشر دون أن يثيـر ذلك استنكار واحتجاج أحد من الناس أو يجعل من تمثيلياتهم موضوعاً للمقاطعة أو الخطر التجارى، ذلك هـو الإنسـان العربى الذى بات يعامل فى هذه التمثليات باعتبـاره وريثـاً عصرياً للهنود الحمر، فلو كـان الأمـر يتصـل بيهـودى صهيونى لأسموه "معاداة للسامية" و "تفرقة عنصـرية ضـد اليهود" ولارتفعت صيحات الاستنكار فى كل مكان، ولملأت مظاهرات الاحتجاج الشوارع، أما وقد صار الأمر متصـلاً بهذا العربى، فإن مؤلف التمثيلية الغربية يمكنه أن يبث كـل أحقاده ضد العرب وينام هانئ البال ينتظر الترقيات، والأجر الجزيل، وتعليقات الصحف التى تحتفل بعبقريته دون أن يناله عقاب أو أذى.

فالعربى، فى هذه التمثيليات والبرامج، هو الـذى يـزرع القنبلة، وهو الذى يخطف الأطفال، ويعتدى علـى النسـاء، ويقوم بالاغتيالات حتى إذا حادوا به قليلاً عن أدوار الشـر فهو ذلك الأبله العبيط الذى يملك نقـوداً لا يعـرف كيـف يصرفها ويحتاج إلى عقول غربية تحميه من حقد أخيـه أو

ابن عمه، حتى الأشرطة السينمائية التـى تتنـاول مراحـل الكفاح الوطنى ضد الاستعمار الأجنبى وجدها طـائر "بئـر الغنم" تصور المجاهدين باعتبارهم مجموعة مـن الهمجيـين والبدائيين، وقد أحس هذا الطائر العربى بتأنيـب الضـمير، وهو يشاهد أحد هذه الأشرطة، فقد وجد أن أحـدها يسـيطر على عقله وقلبه ويجعله يتعاطف مـع الضـابط الفرنسـى وحبيبته،عندما جاء جيش المجاهدين يحاصر الكتيبـة التـى يقودها، أقفل الجهاز الذى كان يبث هذا الشريط واستعاذ با من الشيطان الرجيم الذى جعله يتعاطف مع شريط عمل من أجل تزييف إرادة النضال العربى، وأيقن بمدى خطورة هذه الوسائل السمعية والبصرية وتأثيرها علـى عقـل الإنسـان ووجدانه بحيث تجعله، وهو الطائر العربى ينسـى عروبتـه وانتماءه لمعارك التحرير التى خاضها أبناء قومه ويـتحمس لقضية الضابط الفرنسى الدخيل الذى يمثل قـوى الاحـتلال والاستعمار٠

فإذا كان ذلك هو منطق تلك المرحلة الكولونيالية فهـاهم اليوم يسقطون ذاك المنطق على تعاملهم مع العرب اليـوم، وها هى النظرة الاستعمارية ما تزال هى التى تسود أسلوب

معاملتهم لنا وعلاقتهم معنا، وصار هذا العربى الذى يـذهب إلى بلادانهم سائحاً أو باحثاً عـن الراحـة أو العـلاج، هـو الضحية الجديدة لهذه المعاملة العنصرية التى يعاملوننا بهـا، وأصبح مرشحاً دائماً لأدوار البشر، وهدفاً للحمـلات التـى تبغى تشويه صورة العربى فى أذهان المشاهدين.

كان طائر "بئر الغنم" يتساءل بينه وبين نفسه كيف تفشـل مدن كبيرة مثل باريس ولندن ونيويورك، وهى التى تتبـاهى بالمعدلات القياسية التى حققتها فى مجال الجريمـة، كيـف تفشل بإيجاد مجرمين تقدم مـن خلالهـم أدوار الشـر فـى الأشرطة والتمثيليات التى تنتجها؟

قال ينقل هذه الحيرة التى تملأ قلبه إلى جناحه.

أتراهم لم يعثروا على عربى واحد يمكن أن يمثل جانـب الخير؟ ولكن الجناح أجاب بطريقة ساخرة: "لا شـك أنهـم تأثروا فى ذلك بالتمثيليات العربية".

وتذكر طائر "بئر الغنم" هذا الطوفان من التمثيليات التـى ثبتها الإذاعات المرئية العربية تمثيليات سمجة ثقيلـة بائسـة تدعى أنها تنقل صورة صادقة عن الحياة فى البادية العربية، لكنها تزييف وتشويه لكل تقاليد الباديـة وأسـلوب حياتهـا،

فأشهر تعبيراتها التى صار يلهو بها أطفالنـا هـى: الـذبح، الذبح، الذبح، وليت مثل هذه الكلمات البشعة تأتى فى حديث موجه إلى أعداء الوطن وأعداء الأمة، ولكنهم يجعلونها لغـة تخاطب يومى بين أفراد العائلة الواحدة، والمنطقة الواحـدة، والبلد الواحد، فهى تمثيليات تصور العربى كأنه لم يخلق إلا ليحيك المؤامرات ويرتكب الجرائم،حيث الأخ يـذبح أخـاه، والابن يتآمر على أبيه، وتتحول الشهامة فـى إحـدى هـذه التمثيليات إلى أن يرسل الأب برأس ابنه مقطوعاً وموضوعاً داخل صندوق إلى صديقه كدليل على الوفاء والمحبة، إلـى هذا المدى يزيفون الوفاء والمحبة فلعل عدوى هذه التمثيليات قد انتقلت حقاً إلى هؤلاء الأجانب الذين يكتبـون التمثيليـات باللغات الأجنبية، وصاروا يستمدون منها صورة عن العربى ينقلونها إلى المشاهدين فى بلدانهم، ولعل فى ذلك دليلاً على تفوق كتاب التمثيليات العرب لأنهم قلبوا المعادلـة القديمـة، فبدلاً من أن نرى المؤلف العربى يقتـبس مـن التمثيليـات الأجنبية صرناً اليوم نرى العكس، وأصبح الأجنبى هو الذى يقتبس من التمثيليات العربيـة، فهـى إذن مناسـبة للفـرح والابتهاج لهذا التفوق لكاتب التمثيلية العربية.

ولكن كيف استطاعت التمثيلية العربية مـع تفننهـا فـى تصوير الشر العربى، أن تحتفظ بسذاجتها وبدائيتها وضعفها الفنى وحوارها المفتعل واعتمادها على المصادفة واخـتلاق الأحداث وتزييف الواقع والمستوى المتدنى للإخراج والأداء مع ما تمتلئ به من رتابة وتكـرار... كيـف يمكـن لهـذه التمثيليات الأجنبية التى بلغت أعلى مستويات التقنية والحبكة القصصية والأداء الفنى أن تأخـذ التمثيليـات ومضـامينها وتنسى شكلها؟ ... أم أن الأمر لقاء فى الهـدف دون سـابق تنسيق وتدبير.

وإذا استطعنا أن نفهم دوافع الإذاعات الغربية وشـركات الإنتاج الدراميـة السـينمائية المعروفـة بممالئتهـا للعـدو الصهيونى ووقوعها تحت سـيطرة الاحتكـارات المعاديـة لطموح شعبنا، كيف نستطيع أن نفهم دوافع هـؤلاء الكتـاب بكل هذه الكميات الهائلة من الشر التى يزرعونها فى قلـب المواطن العربى، حتى جعلوا منه ممثلاً كونياً للشـر؟ هـل هناك فى سلوكنا وطبيعتنا وأسلوب تعاملنا ما يوحى بكل هذا الظلام الذى جعلوه زوراً وبهتاناً يسكن القلب العربى؟ ولكن إحساسه بالضيق من هذه التمثيليات الأجنبية جعلـه ينسـى

حديث جناحه عن التمثيليات العربية، وتمنى لو أن أحداً يفعل شيئاً ليصحح هذه الصورة التى تقدم عن العرب فى البلـدان الغربية، فهى فى الحقيقة لا تقدم فى البلدان الغربيـة فقـط، وإنما نشأت لتكون غذاء لعقول وقلوب المشاهدين فـى كـل بلاد العالم، بفضل شركات التوزيع والتسجيل التـى تملكهـا الشركات المنتجة لهذه الأشرطة والأفلام.

حاول طائر "بئر الغنم" أن يشرح الأمر لجناحه قائلاً: إننا فى بلادنا نستطيع أن نعرف الكاذب مـن الحقيقـى، ولكـن المشاهد الأجنبى الذى يقع تحت سيطرة الإعـلام المعـادى للعرب سوف ترسخ فى ذهنه صورة مشوهة ممسوخة عنـا، وسوف تسهل بعد ذلك تعبئته وتجنيده ضدنا.

ولكن جناحه لم يجب كان مشغولاً فى تلك اللحظة بمشاهدة برنامج استعراضى فكاهى تذيعه الإذاعة المرئية الفرنسية، فقد استغرق ضاحكاً وهو يرى فوق الشاشة الصغيرة صورة هزلية لعربى يرتدى الجبة والعقال يطوف بجمله شوارع باريس.